هذا الكتاب هديّة من

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن توفّر لك هديتنا المجّانية قراءة ممتعة.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب (وسواه من الكتب) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

لُغز الوجه الأصفر

وثلاث قصص أخرى

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لأربع من قصص
شيرلوك هولمز المنشورة أول مرة عام ١٨٩٢/١٨٩٣

The Adventure of Silver Blaze
The Adventure of the Cardboard Box
The Adventure of the Yellow Face
The Adventure of the Stockbroker's Clerk

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

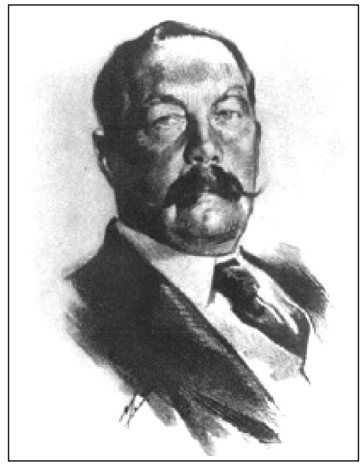

آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُويِر (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته

وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كولِيرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.

* * *

مذكرات شيرلوك هولمز

(١)

ذو الغُرَّة الفِضّية

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية

في عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢

قال هولمز ذات صباح ونحن على مائدة الإفطار: أخشى أن عليّ الذهاب يا واطسون.

- الذهاب! إلى أين؟

- إلى دارتمور، ومنها إلى كنغْزبايلند.

لم يدهشني سماع هذا النبأ، بل كنت -في حقيقة الأمر- أتعجّب كيف لم يتدخل حتى الآن في تلك القضية غير العاديّة التي كانت موضوع الساعة في طول إنكلترا وعرضها.

أخذ رفيقي يجول في الغرفة طول اليوم وذقنه على صدره وحاجباه معقودان، يحشو غليونه المرة تلو الأخرى غيرَ منتبه لأي من أسئلتي وتعليقاتي، حتى إنه كان يلقي عليها نظرة سريعة كنظرته على الطبعات الجديدة من كل الصحف التي أرسلها وكيل أخبارنا ثم يرميها في الزاوية! إلا أنني -بالرغم من صمته- كنت أعرف جيداً الأمر الذي كان يمعن التفكير فيه، فلم تكن أمامه سوى مشكلة واحدة شهيرة يمكن أن تتحدى قدراته الاستنتاجية، وهي قضية الاختفاء المثير للجواد المرشَّح للفوز بكأس ويسكس والموت المأساوي لسائسه، لذلك كان إعلانه المفاجئ عن نيّته في الذهاب إلى مسرح الأحداث هو ما توقعته، بل وما تمنّيته.

قلت: يسعدني جداً الذهاب معك إذا كنت لن أعيقك.

- بل إنك ستؤدّي لي خدمة عظيمة بذهابك معي يا عزيزي واطسون، ثم إنني أعتقد أن وقتك لن يضيع سدى، حيث إن بعض الأمور المتعلقة بهذه القضية تدل على كونها متميزة. لا أظن أن لدينا وقتاً لنضيّعه إذا أردنا اللحاق بقطارنا في محطة بادنغتون، وسأتعمق أكثر في هذه القضية خلال رحلتنا، كما أرجو أن تتفضل بإحضار منظارك المكبّر الرائع معك.

* * *

وهكذا وجدت نفسي -بعد ساعة أو نحوها- جالساً في زاوية من زوايا عربة الدرجة الأولى في القطار المنطلق في طريقه إلى إكستر، أمّا شيرلوك هولمز بوجهه الحادّ المتلهف وقبعة سفره التي تغطي الأذنين فقد انغمس بسرعة في كومة من الصحف الجديدة التي حصل عليها من محطة بادنغتون، وكنا قد ابتعدنا عن ريدِنْغ بمسافة طويلة حين دفع بآخر صحيفة تحت مقعده.

نظر هولمز عبر النافذة، ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته وقال: نحن نسير بسرعة جيّدة، فمعدلنا في الوقت الحاضر هو ثلاثة وخمسون ميلاً ونصف ميل في الساعة.

قلت: ولكنني لم ألاحظ علامة ربع الميل!

- ولا أنا، ولكن أعمدة البرق على هذا الخطّ يبعد أحدها عن الآخر خمسين متراً، وهكذا فالحسبة بسيطة. حسناً، أفترضُ أنك درست موضوع مقتل السائس جون

ستراكر واختفاء الجواد «سلفر بليز» (ذي الغُرّة الفضّية).

– لقد قرأت ما ورد من تفصيلات في صحيفتَي «التلغراف» و«الكرونيكل».

– إنها إحدى تلك القضايا التي يجب أن نستخدم فيها فنّ التحليل المنطقي لغربلة التفصيلات بدلاً من البحث عن أدلّة جديدة، فالمأساة كبيرة وغريبة تماماً، بالإضافة إلى أهميتها الشخصية لكثير من الناس. إننا نعاني من كثرة التخمينات والشائعات والفرضيات، وهنا تكون الصعوبة في فصل الحقيقة، الحقيقة المطلقة التي لا يمكن إنكارها، عن

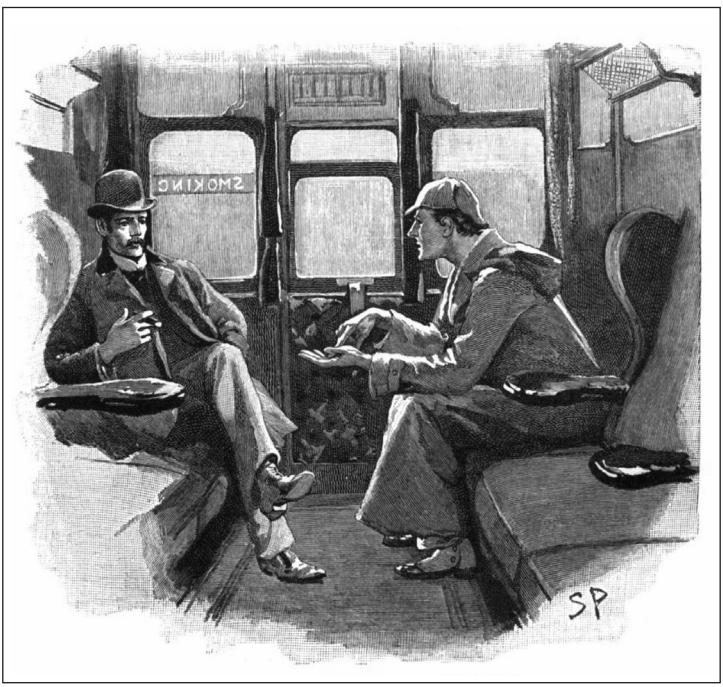

رسم سدني باجيت (١٨٩٢) Sidney Paget (1892)

كل الزخارف التي أضافها المراسلون والصحفيون وأصحاب النظريات، وحين نستقرّ على أساس ثابت يكون من واجبنا أن نقرّر ما هي النتائج التي يمكن استخلاصها والنقاط المهمة التي يدور اللغز كله حولها. لقد استلمت مساء الثلاثاء برقية من الكولونيل روس مالك الحصان وأخرى من المفتّش غريغوري الذي يبحث القضية، وكلاهما يطلب معاونتي.

صحت بدهشة: مساء الثلاثاء! ونحن الآن صباح الخميس. لماذا لم تذهب بالأمس؟

- كانت حماقة مني يا عزيزي واطسون، وأخشى أن هذا الأمر يحدث كثيراً خلافاً لما قد يظنه أي واحد من الذين يعرفونني فقط من خلال مذكراتك. الحقيقة أنني لم أصدّق إمكانية بقاء الحصان الأكثر روعة في إنكلترا مختفياً لفترة طويلة، ولا سيما في مكان قليل السكان كشمال دارتمور! لقد توقعت بالأمس بين ساعة وأخرى أن أسمع أنهم وجدوه وأن مختطفه هو نفسه قاتل جون ستراكر، ولكن عندما جاء الصباح ووجدت أنهم لم يفعلوا شيئاً سوى القبض على الشاب فتزْروي سِبْمسون شعرت بأن الوقت حان للعمل... وإن كنت -مع هذا- أحسّ أن يوم أمس لم يذهب هباءً.

- هل توصلت إلى نظرية إذن؟

- لقد فهمت الحقائق الأساسية في القضية على الأقل، وسوف أسردها عليك، فلا شيء يوضّح قضية أكثر من سردها على شخص آخر، كما أنني لن أتوقع تعاونك إذا لم تعرف

من أين بدأنا.

استلقيت على المقعد فيما انشغل هولمز -وقد مال إلى الأمام- بتوضيح النقاط الأساسية وإعطائي تصوّراً للأحداث التي كانت وراء هذه الرحلة. قال:

الحصان «سِلْفَر بْليز» (ذو الغُرّة الفضّية) من سلالة السوموني وله سجل رائع كسَلَفه الشهير، وهو الآن في عامه الخامس، وقد حصل بالتناوب على كل جوائز السباق لصاحبه المحظوظ الكولونيل روس، وكان حتى وقت وقوع الكارثة هو المرشَّح الأول لكأس ويسكس، حيث كان الرهان لصالحه ثلاثة إلى واحد. كان دائماً هو المرشَّح الأول لجماهير السباق ولم يخيّب أملهم حتى الآن، ورغم المبالغ الضخمة المراهَن بها عليه فإن كثيرين لديهم دافع قويّ لمنعه من الوصول إلى نهاية السباق يوم الثلاثاء القادم، ولأنهم مدركون تماماً لهذه الحقيقة في كنغزبايلند، حيث تقع حظائر الكولونيل لأحصنة السباق، فقد اتُّخذت كل الاحتياطات لحراسة الجواد.

كان السائس جون ستراكر فارسَ سباقات متقاعداً، وقد عمل في فريق الكولونيل روس قبل أن يصبح وزنه أكثر من المسموح، وكان قد خدم الكولونيل لخمس سنوات فارساً وسبع سنوات سائساً، ودائماً ما كان يظهر كخادم متحمس أمين يعمل تحت إشرافه ثلاثة فتيان فقط، إذ كانت المنشأة صغيرة وتحتوي على أربعة أحصنة فقط، وكان أحد هؤلاء الفتيان يسهر طول الليل في الحظيرة وينام الآخران في العلّيّة،

ويتمتع الثلاثة بشخصيات ممتازة. أما جون ستراكر فكان يقيم في بيت صغير يبعد مئتَي متر عن الحظيرة لأنه رجل متزوج، وليس لديه أطفال وعنده خادمة واحدة والمكان موحش جداً، ولكن على بعد نحو نصف ميل شمالاً يوجَد مجمع صغير من الدارات، بناها مقاول من تافِسْتوك لتكون مكاناً يقصده المرضى والذين يريدون الاستمتاع بجوّ دارتمور النقي.

بلدة تافستوك نفسها تقع على بعد ميلين إلى الغرب، في حين تقع إسطبلات خيل أخرى أكبر (هي مابلتون) على بعد ميلين عبر المستنقع، ويملكها اللورد باكْوُوتر ويديرها سايْلاس براون. ومن جميع الجهات الأخرى يمتدّ مستنقع يحيط به قفر موحش يسكنه فقط بعض الغجر الرحّالة.

كانت تلك هي الحالة العامة يوم الإثنين الماضي حين وقعت الكارثة. في ذلك المساء انتهى تمرين الخيول وسُقِيت كالعادة، ثم أغلق الفتيان الحظائر في التاسعة، واتجه اثنان منهم إلى منزل السائس فتناولوا العشاء في المطبخ. أمّا الثالث، نيد هَنْتَر، فقد بقي في الحراسة، وبعد التاسعة بعدّة دقائق ذهبت الخادمة إلى الحظيرة حاملة له العشاء، وهو طبق من لحم الضأن بالكاري، ولم تأخذ معها أي مشروبات حيث يوجَد صنبور للمياه في الحظيرة، وهو الشيء الوحيد المسموح بشربه في أثناء الخدمة، وكان مع الخادمة مصباح لأن الظلام كان شديداً والطريق يمرّ عبر المستنقع الموحش.

كانت إيدث باكستر على بعد ثلاثين متراً من الحظائر

حين خرج رجل من الظلام وناداها لتقف، وعندما اقترب من دائرة ضوء المصباح الأصفر رأت أن مظهره يدل على النبل، حيث كان يرتدي بدلة رمادية اللون وقبّعة من القماش وقد انتعل في قدميه حذاء ذا ساق عالية، وكان يحمل عصا

رسم ولْيَم هايْد (١٨٩٣) William Hyde (1893)

ثقيلة ذات مقبض. وقد تأثرت الخادمة تأثراً شديداً من شحوب وجهه وتوتره ورجّحت أن يكون عمره فوق الثلاثين. سأل قائلاً: هل يمكنك أن تخبريني أين أنا؟ لقد كنت على وشك النوم في المستنقع حين رأيت ضوء مصباحك.

رسم سدني باجيت (١٨٩٢) Sidney Paget (1892)

قالت: أنت قريب من حظائر كنغزبايلند.

صاح قائلاً: حقاً؟ يا لها من ضربة حظ! أنا أعرف أن فتى الحظيرة ينام هناك وحده كل ليلة، وربما كان هذا الذي تحملينه عشاءه، وأنا متأكد أن كبرياءك لن يمنعك من كسب ثمن ثوب جديد، أليس كذلك؟

ومن ثم أخرج قطعة ورق بيضاء مطويّة من جيب صدريته ودفعها إليها قائلاً: تأكدي أن يأخذ فتى الحظيرة هذه الورقة الليلة، وستنالين أجمل ثوب يمكن للمال شراؤه.

أخافَتها طريقته ونبرة حديثه، فتجاوزته راكضةً لتصل إلى النافذة التي اعتادت تسليم وجبات الطعام منها، والتي كانت مفتوحة بالفعل. كان هنتر يجلس إلى الطاولة الصغيرة في الداخل، وحين بدأت تخبره بما حدث ظهر الغريب مرة أخرى. نظر الرجل عبر النافذة وقال: مساء الخير، لقد أردت التحدث إليك.

وقد أقسمت الفتاة أنها لاحظت طرف الورقة الصغيرة يظهر من يده المغلقة في أثناء كلامه.

سأله الفتى: ماذا تفعل هنا؟

قال الرجل: ما أفعله هنا قد يضع النقود في جيبك. عندك حصانان مشتركان في كأس ويسكس: «سلفر بليز» و«بيارد»، وإذا أعطيتني معلومة واضحة فلن تكون خاسراً. هل صحيح أن بيارد سبق الآخر في الأوزان وأن جميع مَن في الحظيرة

يراهنون بأموالهم عليه؟

صاح الفتى: أنت واحد من أولئك الذين يتجسّسون على الحظائر إذن؟ سأريك ما نفعله بأمثالك في كنغزبايلند.

هبّ الفتى واقفاً وانطلق عبر الإسطبل ليطلق الكلب، أما الفتاة فقد هربت إلى المنزل، وبينما كانت تجري نظرت خلفها لترى الغريب يميل عبر النافذة، ولكنه كان قد اختفى عندما أخرج هنتر الكلب بعد دقيقة واحدة، ومع أنه جرى حول المباني كلها إلا أنه فشل في العثور على أي أثر له.

عند تلك النقطة سألتُ هولمز قائلاً: هل ترك صبي الحظيرة الباب مفتوحاً خلفه حين خرج يجري مع الكلب؟

قال رفيقي: ممتاز يا واطسون، لقد استوقفَتني أهمية هذه النقطة بشدّة، حتى إنني أرسلت برقية خاصة إلى دارتمور أمس لأستوضح الأمر. لقد أغلق الفتى البابَ قبل أن يغادر، أما النافذة فإنها ليست واسعة بما يكفي لمرور رجل. لقد انتظر هنتر عودة زملائه حتى يبعث برسالة إلى ستراكر يخبره فيها بما حدث، وقد انفعل ستراكر عند سماعه بالأمر. ومع أنه لم يدرك دلالته الحقيقية على ما يبدو إلا إنه شعر بعدم الراحة، فعندما استيقظت السيدة ستراكر في الساعة الواحدة صباحاً وجدته يرتدي ملابسه، وأخبرها حين سألَته أنه لم يستطع النوم بسبب قلقه على الخيول وأنه ينوى الذهاب إلى الإسطبل ليطمئنّ إلى أن كل شيء على ما يرام، وقد توسّلَت إليه ليبقى في المنزل لأنها كانت تسمع دقّات المطر على النافذة، ولكنه

أخذ معطفه الواقي من المطر وخرج بالرغم من توسلاتها.

استيقظت السيدة ستراكر في السابعة صباحاً لتجد أن زوجها لم يَعُد بعد، فارتدت ملابسها على عجل ونادت الخادمة ليذهبا معاً إلى الحظائر، وهناك وجدتا الباب مفتوحاً، وفي الداخل كان هنتر مكوَّماً على الكرسيّ غارقاً في غيبوبة كاملة، وكان مربط الحصان المرشَّح للفوز خالياً ولا أثر لسائسه!

استيقظ الصبيّان النائمان في مخزن التبن فوق الغرفة التي توجَد فيها عدّة الخيول، وبما أن كليهما كان نومه عميقاً فلم يسمعا شيئاً في أثناء الليل، وبدا بوضوح أن هنتر واقع تحت تأثير مخدّر قوي، ولأنهم لم يستطيعوا فهم شيء منه فقد تركوه لينام حتى يزول تأثير المخدّر، وجرى الصبيّان والمرأتان للبحث عن الغائبين والأمل يراودهم في أن يكون السائس قد أخذ معه الحصان لتدريب مبكّر لسبب ما، ولكنهم لم يجدوا أي أثر للحصان المفقود عند صعودهم الهضبة القريبة من المنزل، بل لاحظوا وجود شيء أنذرهم بأنهم أمام مأساة.

فعلى بعد ربع ميل من الحظائر كان معطف جون ستراكر يتدلى فوق كومة من الشجر الشائك، وخلف الشجر تماماً كان يوجد منحدر شديد في المستنقع، وفي الأسفل عُثر على جثة السائس السيّئ الحظ وقد تحطم رأسه نتيجة ضربة قاسية من سلاح ثقيل، وفي فخذه جرح طويل أُصيبَ به -على ما يبدو- بواسطة آلة حادّة جداً. وكان واضحاً أن ستراكر قاوم مهاجميه

بشدّة، فقد كانت في يده سكّين صغيرة عليها دم متخثّر حتى المقبض، في حين قبض بيده اليمنى على رباط عنق من الحرير الأحمر والأسود، وقد ميّزته الخادمة على أنه ذلك الذي كان يرتديه الغريب الذي زار الحظائر في الليلة السابقة.

بعد تعافيه من غيبوبته كان هنتر متأكداً تماماً أن ذلك الغريب كان يضع ربطة العنق تلك، كما كان متأكداً أيضاً أن

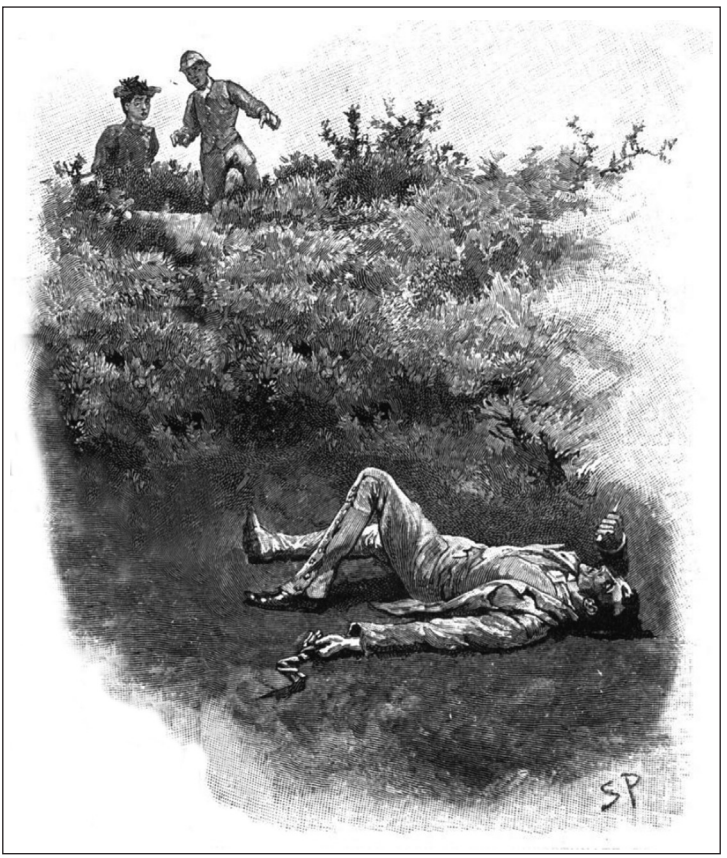

رسم سدني باجيت (١٨٩٢) Sidney Paget (1892)

الغريب هو الذي دسّ المخدّر في طبق لحم الضأن حينما كان واقفاً عند النافذة، وبذلك حرم الحظائر من حارسها. أما الحصان فقد أثبتت الأدلّة أنه كان موجوداً في قاع الحفرة الطينية المشؤومة طوال مدة الصراع، ولكنه كان قد اختفى منذ ذلك الصباح، وبالرغم من رصد مكافأة كبيرة وإبلاغ كل الغجر في دارتمور لم ترد أي معلومات عنه. وقد دلّ التحليل أخيراً على وجود كمية كبيرة من الأفيون المطحون في عشاء صبيّ الحظيرة، في حين اشترك الناس في المنزل في تلك الليلة في الطعام نفسه دون أي آثار سيّئة.

هذه هي الحقائق الأساسية في القضية مجرَّدةً من كل التخمينات ومَصوغة بكل صراحة ممكنة، وسوف ألخّص الآن ما فعله رجال الشرطة في الموضوع.

المفتش غريغوري الذي أُسندت إليه القضية ضابط كفء

رسم ولْيَم هايْد (١٨٩٣) William Hyde (1893)

جداً، ولو كان يملك موهبة الخيال لوصل إلى مستويات عالية في مهنته، فقد عثر فور وصوله على الرجل الذي وقعت عليه الشكوك واعتقله، وبما أنه كان يسكن إحدى الدارات التي ذكرتها من قبل فلم يكن القبض عليه صعباً. أمّا اسمه فهو فتزروي سمبسون، وهو رجل ذو نسب وتعليم ممتازَين، وقد بدّد ثروته في حلبة السباق ويعيش الآن على بعض المراهنات الهادئة الراقية في نوادي لندن الرياضية. وبفحص سجل مراهناته ظهر أن مراهنات بمبلغ خمسة آلاف جنيه قد سُجِّلت بواسطته ضدّ الجواد المرشَّح، وعند القبض عليه تطوّع بالتصريح بأنه جاء إلى دارتمور أملاً في الحصول على بعض المعلومات عن خيول كنغزبايلند، وأيضاً عن ديسْبورو المرشَّح الثاني الذي هو تحت رعاية سايلاس براون في حظائر مابلتون. ولم يحاول إنكار تصرفاته في الليلة السابقة، ولكنه أكد أنه لم تكن لديه أي نوايا سيّئة وأنه أراد فقط الحصول على معلومات سرية. وحين وُوجِهَ بربطة العنق شحب وجهه ولم يستطع تبرير وجودها في يد القتيل، وقد دلّت ملابسه على خروجه في العاصفة في الليلة السابقة، كما أن عصاه يمكن أن تكون هي السلاح الذي تسبّب في تلك الجروح الفظيعة التي تعرض لها السائس. ومن ناحية أخرى لم يكن سمبسون مصاباً بأية جروح، في حين تدل حالة سكين ستراكر على أن واحداً من مهاجميه على الأقل قد أصابه جرح بها.

ها قد عرفتَ كل شيء يا واطسون، وسوف أكون ممتنّاً لك لو استطعت تقديم أي توضيح.

استمعت بانتباه شديد إلى عرض هولمز للقضية مع توضيحه المميَّز، وبالرغم من كون معظم الحقائق مألوفاً لي إلا أنني لم أدرك أهميتها النسبية بما فيه الكفاية ولا ارتباطها بعضها ببعض. اقترحت قائلاً: ألا يمكن أن يكون الجرح القاطع في فخذ ستراكر قد نشأ بواسطة سكّينه بسبب التشنّجات العنيفة التي عادة ما تتبع إصابات الدماغ؟

قال هولمز: هذا أكثر من ممكن، إنه مرجَّح، وفي هذه الحالة تختفي إحدى النقاط الرئيسية في مصلحة المتهَم.

- ومع ذلك ما زلت لا أفهم نظرية الشرطة.

ردّ رفيقي قائلاً: أخشى أننا سنجد اعتراضات ذات شأن على أيّ من النظريات التي يمكن أن نتوصل إليها. الشرطة يتصورون -على ما أظن- أن فتزروي سمبسون خدّرَ الصبي وحصل بطريقة ما على مفتاح فتح به باب الحظيرة وأخذ الحصان وفي نيّته اختطافه على ما يبدو، وبما أن لجامه مفقود فلا بد أنه وضعه عليه، وبعد أن ترك الباب مفتوحاً خلفه وبينما كان يقود الحصان بعيداً قاصداً المستنقع قابل ستراكر، وربما كان ستراكر قد هاجمه، ثم تلا ذلك عراكٌ، فضرب سمبسون ستراكر على رأسه بعصاه الثقيلة دون أن يصيبه أي جرح من السكين الصغير الذي استخدمه ستراكر للدفاع عن نفسه. بعد ذلك أمامنا احتمالان: إمّا أن السارق قاد الحصان إلى مكان سرّي لإخفائه، أو أن الحصان جفل في أثناء الصراع وهو الآن يهيم في المستنقع. هذه هي القضية كما يراها رجال الشرطة،

وبالرغم من كونها غير محتمَلة فكل التفسيرات الأخرى غير محتمَلة أيضاً. على كل حال سأدرس الأمر فور وصولي إلى المكان، وحتى ذلك الوقت لن نستطيع معرفة أكثر من ذلك.

* * *

حلّ المساء قبل وصولنا إلى بلدة تافستوك التي تقع وسط الدائرة الضخمة التي تمثّل ناحية دارتمور مثل الحلية وسط

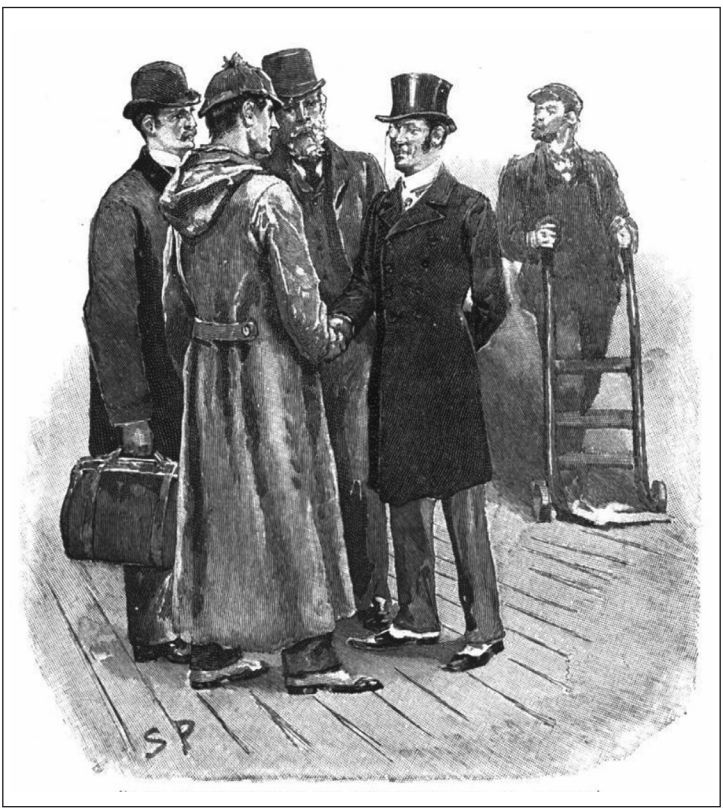

رسم سدني باجيت (١٨٩٢) Sidney Paget (1892)

ترس. كان في انتظارنا في المحطة رجلان أحدهما أشقر طويل ذو شعر كثيف على كل من رأسه ولحيته وله عينان ثاقبتان فضوليتان زرقاوان، والآخر شخص ضئيل يقظ متأنق مرتَّب جداً ويرتدي معطفاً ثميناً وحذاء ذا ساق عالية، وله شارب قصير منمَّق ويضع نظّارة طبية. وكان معهما الكولونيل روس، الرياضي المعروف، والمفتش غريغوري، وهو رجل بدأ يصنع لنفسه مكانة في مجتمع الشرطة السرّية الإنكليزية.

قال الكولونيل: يسعدني حضورك يا سيد هولمز. لقد بذل المفتش غريغوري كل ما بوسعه، ولكني حريص على استنفاد كل الوسائل وفحص كل الاحتمالات الممكنة في سبيل الثأر لستراكر المسكين واسترداد الجواد المفقود.

سأل هولمز: هل وقعت أي تطورات جديدة في القضية؟

قال المفتش: أخشى أن أقول إننا لم نحقق سوى القليل من التقدم يا سيد هولمز. ثمّة عربة تنتظرنا في الخارج، وحيث إنك سترغب بالتأكيد بمعاينة المكان قبل الظلام فأقترح أن نكمل حديثنا في الطريق.

بعد دقيقة كنا كلنا جالسين في عربة مريحة تسير بسرعة في شوارع مدينة ديفونشاير القديمة الجذّابة. كان المفتش غريغوري غارقاً في قضيته وأغدق علينا سيلاً من الملاحظات، أما هولمز فقد ألقى بعض الأسئلة العرَضيّة والملاحظات الاعتراضية. ورجع الكولونيل روس إلى الخلف وقد عقد ذراعيه وقبعته تغطي عينيه، أما أنا فقد استمعت باهتمام إلى

الحوار الدائر، حيث كان غريغوري يصوغ نظريته التي كانت تشمل تقريباً كل ما قاله هولمز في القطار سابقاً.

أبدى غريغوري ملاحظة قائلاً: لقد ضاقت الشبكة حول فتزروي سمبسون، وأنا أعتقد أنه رجلنا المنشود، ولكن المشكلة أن الأدلّة كلها ظَرفيّة وأي تطورات جديدة قد تفسدها.

- وماذا عن سكّين ستراكر؟

- استنتجنا أنه جرَح نفسه عندما سقط.

- لقد اقترح ذلك صديقي الدكتور واطسون ونحن في الطريق، وإذا كان هذا صحيحاً فهو ضدّ هذا الرجل سمبسون.

- بلا شك، فلم يكن معه سكين ولا عليه أي أثر لجرح. الدليل ضدّه قوي جداً بكل تأكيد، فقد كان مستفيداً من اختفاء الجواد المرشَّح ويحوم حوله الشك في تخدير فتى الحظيرة، كما أنه كان موجوداً في الخارج أثناء العاصفة، وبلا شك فقد كان مسلَّحاً بعصا ثقيلة، وعُثر على رباط عنقه في يد القتيل... أظن أن كل ذلك كافٍ أمام المحلّفين.

هزّ هولمز رأسه وقال: أيّ محام حاذق سيجعل من هذه الأدلة هباء منثوراً، فلماذا يأخذ الحصانَ خارج الحظيرة؟ لو أراد جرحه فلماذا لم يفعل ذلك في الداخل؟ هل وُجدت معه نسخة من المفتاح؟ مَن هو الكيميائي الذي باعه الأفيون المطحون؟ وقبل ذلك كله: أين يمكن له -وهو الغريب عن المنطقة- إخفاء حصان، ولا سيما حصان معروف مثل هذا؟

بالمناسبة، ما هو تفسيره للورقة التي طلب من الخادمة إعطاءها لصبي الحظيرة؟

- قال إنها ورقة من فئة عشرة جنيهات، وقد وجدنا واحدة في حقيبته. ولكن كل الصعوبات الأخرى التي ذكرتَها ليست بالأهمية التي تبدو عليها، فهو ليس غريباً عن المنطقة، إذ أقام مرتين في تافستوك صيفاً، ومن المحتمَل أنه أحضر الأفيون معه من لندن، أما المفتاح فقد رماه بعد أن أدّى الغرض منه، والحصان يمكن أن يكون في قاع أي حفرة أو منجم قديم في المستنقع.

- وماذا يقول عن ربطة العنق؟

- اعترف بأنها له وأعلن أنه فقدها، ولكن عنصراً جديداً ظهر في القضية قد يفسّر سبب قيادته للحصان خارج الحظيرة.

انتبهَت حواسّ هولمز، وأكمل الرجل قائلاً: لقد وجدنا آثاراً تُظهِر أن مجموعة من الغجر عسكروا ليلة الإثنين على بعد ميل من موقع حادثة القتل، وبحلول الثلاثاء كانوا قد رحلوا. والآن بافتراض أنه كان بين سمبسون وهؤلاء الغجر اتفاق، أليس من الممكن أنه كان يسوق الحصان إليهم حينما هوجم؟ ألا يمكن أن يكون عندهم الآن؟

- يمكن بالطبع.

- نحن نقوم الآن بتفتيش سريع للمستنقع بحثاً عن هؤلاء الغجر، وقد فحصت أيضاً كل حظيرة في تافستوك وما حولها

في دائرةٍ نصفُ قطرها عشرة أميال.

- لقد فهمت أن إسطبلاً آخر يقع قريباً من هذا المكان؟

- أجل، وهذا عنصر يجب علينا أن لا نُهمِله بالتأكيد، حيث إن حصانهم «ديسبورو» هو المرشَّح الثاني في الرهان، ولذلك فإن لهم مصلحة في اختفاء المرشَّح الأول. وقد عُرف عن سائسهم سايلاس براون أنه يراهن بأموال ضخمة في هذا السباق، وهو لم يكن صديقاً للمسكين ستراكر، ولكنا فتّشنا الحظائر فلم نجد شيئاً يربطه بالموضوع.

- ألم تجد شيئاً يربط هذا الرجل سمبسون بمصالح حظائر مابلتون؟

- لا شيء على الإطلاق.

استرخى هولمز في مقعد العربة إلى الخلف وتوقفت المحادثة، وبعد عدّة دقائق توقف السائق عند دارة أنيقة صغيرة من الحجر الأحمر تقع بجانب الطريق، وعلى مسافة منها في الناحية الأخرى من المضمار رأينا مبنى رمادياً طويلاً، أمّا كل الاتجاهات الأخرى فكانت تُظهِر منحنيات المستنقع مكسوَّة باللون البرونزي من نبات السرخس وتمتد أمامنا حتى تتصل بخط الأفق، لا تتخللها سوى كنيسة تافستوك ومجموعة من المنازل في الناحية الغربية حيث تقع حظائر مابلتون.

خرجنا جميعاً متوقعين أن يتبعنا هولمز الذي تابع اضطجاعه إلى الخلف وعيناه مثبَّتتان على السماء أمامه وهو

مستغرق تماماً في أفكاره، وعندما لمست كتفه انتفض من المفاجأة، ثم خرج من العربة!

التفت هولمز ناحية الكولونيل روس الذي كان ينظر إليه ببعض الدهشة وقال: اعذروني، كنت أحلم أحلام اليقظة.

كان في عينيه بريق وفي تصرفاته انفعال مكبوت، مما أقنعني -أنا المعتاد على أسلوبه- بأنه وضع يده على دليل، مع أنني لم أستطع أن أتخيّل من أين حصل عليه!

قال غريغوري: لعلك تفضّل الذهاب إلى مسرح الجريمة يا سيد هولمز؟

- بل أفضّل البقاء هنا قليلاً لأراجع بضع نقاط عن التفصيلات. لقد أحضرتم جثة ستراكر إلى هنا كما أفترض، أليس كذلك؟

- بلى، إنها في الطبقة العليا، وسوف يبدأ التحقيق غداً.

- كان في خدمتك لسنوات عدة يا كولونيل روس، أليس كذلك؟

- لقد وجدته خادماً ممتازاً على الدوام.

- أحسبُ أنك جردت ما كان في جيوبه وقت الوفاة أيها المفتّش، أليس كذلك؟

- بلى، والأشياء التي وجدناها معه موجودة في غرفة الجلوس إذا رغبت في رؤيتها.

- يسعدني أن أفعل.

دخلنا جميعاً إلى الغرفة الأمامية وجلسنا حول الطاولة الرئيسية، ثم فتح المفتش صندوقاً معدنياً صغير الحجم وأفرغ أمامنا كومة صغيرة. كانت في الكومة علبة كبريت وشمعة صغيرة وغليون خشبي، ومحفظة من جلد الفقمة فيها نصف مقدار من التبغ المضغوط، وساعة فضّية مع سلسلة ذهبية، وخمسة جنيهات إنكليزية ذهبية، وعلبة قلم رصاص من الألمونيوم، وبعض الورق، وسكين ذات مقبض عاجي، ونصل حادّ دقيق عليه علامة «ويلز وشركاه، لندن».

رفع هولمز السكين وفحصها لعدة دقائق ثم قال: إنه سكّين رائع! وأحسب أنه نفس السكين الذي وُجد في قبضة القتيل لأن عليه بقعاً من الدم. لا بدّ أن يكون هذا السكين في مجال تخصصك يا واطسون؟

قلت: إنه يُستخدَم في جراحات العين.

- هذا ما ظننته. إنه نصل دقيق جداً مصمَّم لوظيفة دقيقة جداً، وإنه لأمر غريب أن يحمله رجل في مثل هذه الحالة، لا سيما وأنه لن يُطوى في جيبه.

قال المفتش: كان النصل الحاد مَحميّاً بقطعة من الفلّين وجدناها بجوار الجثة، وقد أخبرتنا زوجته أن السكين كان على طاولة الزينة وأنه التقطه عندما غادر الغرفة. إنه سلاح ضعيف، ولكن ربما كان أفضل ما استطاع الوصول إليه في تلك اللحظة.

- ممكن جداً. وماذا عن هذه الأوراق؟

- ثلاث منها إيصالات استلام خاصة بحساب تُجّار التبن، وواحدة فيها تعليمات من الكولونيل روس، وهذه الورقة الأخيرة هي كشف حساب باسم وليَم ديربشاير صادر من محل مدام ليسوريه في شارع بوند، وهو بمبلغ سبعة وثلاثين جنيهاً وخمسة عشر شلناً. وقد قالت السيدة ستراكر إن السيد وليَم ديربشاير صديق لزوجها وإنه يستلم خطاباته عن طريق زوجها في بعض الأحيان.

علّق هولمز وهو ينظر إلى الحساب: إن للسيدة ديربشاير ذوقاً مكلّفاً جداً، فهذا المبلغ كبير بالنسبة لثوب واحد! على كل حال يبدو أنه لم يَعُد أمامنا شيء لنعرفه، وبوسعنا الآن الذهاب إلى مكان الحادث.

بينما كنا نخرج من غرفة الجلوس إذا بامرأة كانت تنتظر في الممرّ تخطو خطوة إلى الأمام وتضع يدها على ذراع المفتش! كان وجهها منهَكاً نحيلاً قلقاً، وكان مطبوعاً عليه الرعب مما حدث. شهقت قائلة: هل حصلتم عليه؟ هل وجدتموه؟

قال المفتش: لا يا سيدة ستراكر، ولكن السيد هولمز جاء من لندن لمساعدتنا، وسوف نعمل كل ما يمكن عمله.

قال هولمز: أحسب أنني قابلتك في بلايموث في حفلة من الحفلات منذ وقت غير طويل يا سيدة ستراكر.

- لا يا سيدي، أنت مخطئ.

– يا إلهي، كدت أقسم على ذلك! لقد كنت ترتدين ثوباً من الحرير الأبيض مزيَّناً بريش النعام.

أجابت السيدة: لم يكن عندي قطّ مثل هذا الثوب يا سيدي.

قال هولمز: حسناً، هذا ينهي الموضوع تماماً.

رسم سدني باجيت (١٨٩٢) Sidney Paget (1892)

اعتذر منها وتبع المفتش إلى الخارج، وبعد أن مشينا مسافة قصيرة في المستنقع وصلنا إلى المنحدر، وعلى حافته كانت أكمة الشجر التي علق بها المعطف. قال هولمز: لم تكن في تلك الليلة رياح كما فهمت.

- نعم، ولكن كان فيها مطر شديد.

- في هذه الحالة فالمعطف لم يكن ليطير ويحطّ على الأكمة، وإنما هو قد وُضع هناك.

- أجل، لقد وُضع على الأكمة.

- هذا مثير للاهتمام. أرى الكثير من آثار الأقدام، ولا شك أن العديد من الأقدام جاءت إلى هنا منذ ليلة الإثنين.

- لقد وضعنا قطعة من الحصير على الجانب ووقفنا جميعاً عليها.

- ممتاز.

- عندي في هذه الحقيبة فردة الحذاء الذي كان ينتعله ستراكر وأخرى كان ينتعلها فيتزروي، وقالب لحدوة الحصان المفقود.

- عزيزي المفتش، أنت تتفوق على نفسك!

أخذ هولمز الحقيبة ونزل إلى المنحدر حيث دفع بالحصيرة إلى مكان أكثر مركزية، وبعد ذلك تمدّد على وجهه مستنداً بذقنه على يديه وأجرى دراسة متأنّية لمكان آثار الأقدام

أمامه في الطين، ثم صاح فجأة: ما هذا؟!

كان هناك عود كبريت نصف محترق، وكان مغلَّفاً بالطين لدرجة أنه بدا في البداية كقطعة من الخشب.

قال المفتّش وتعبيراته تدل على الضيق: لا أعرف كيف لم أجده!

- لقد كان مَخفيّاً مدفوناً في الطين، وقد رأيته فقط لأنني كنت أبحث عنه.

- ماذا؟! أكنت تتوقع أن تجده؟

- تصورت أن هذا غير مستبعَد.

أخذ هولمز الأحذية من الحقيبة وقارن أثر كل منها بالآثار الموجودة على الأرض، ثم تسلق إلى حافة المنحدر وزحف مفتشاً بين السرخس والأجمة، فقال المفتش: أخشى أنك لن تجد أيّ آثار أخرى. لقد فحصت الأرض بعناية لمسافة مئة متر في كل اتجاه.

قال هولمز وهو ينهض واقفاً: حقاً؟ إذن عليّ أن لا أتصرف بوقاحة وأبحث ثانية بعد الذي قلتَه، ولكنني أفضّل أن أتمشى قليلاً في أنحاء المستنقع قبل أن يهبط الظلام حتى أعرف طريقي غداً، وأظن أنني سأحتفظ بحدوة الحصان لتجلب لي الحظ.

ألقى الكولونيل روس الذي كان يُظهِر بعض الضيق من أسلوب رفيقي الهادئ المنظَّم في العمل، ألقى نظرة سريعة

على ساعته وقال: أرجو أن تأتي معي أيها المفتش، فعندي عدة نقاط أرغب في سماع نصيحتك بشأنها، ولا سيما إذا كنا ندين للجماهير بحذف اسم حصاننا من قائمة السباق.

صاح هولمز بحزم قائلاً: بالطبع لا، أنا أرى أن تترك الاسم في القائمة.

انحنى الكولونيل باحترام وقال: يسعدني جداً معرفة رأيك يا سيدي، وسوف تجدنا في منزل المسكين ستراكر عندما تنهي جولتك، وعندها يمكن أن نذهب معاً إلى تافستوك.

ثم استدار راحلاً ومعه المفتش، فيما سرت أنا وهولمز باتجاه المستنقع.

* * *

كانت الشمس قد بدأت بالغروب خلف حظائر مابلتون والسهل الطويل المنحدر أمامنا يتلون بلون ذهبي يتحول إلى لون بنّي ضارب إلى الحمرة عندما ينعكس ضوء الأصيل على نباتات السرخس والعلّيق، ولكن سحر المكان كان بلا فائدة مع صاحبي الذي غرق في أفكاره.

قال في النهاية: إنه هذا الطريق يا واطسون. لعل علينا الآن أن نترك التساؤلات بشأن قاتل ستراكر ونحصر أنفسنا في اكتشاف ما حدث للحصان. والآن إذا افترضنا أنه أفلت قبل المأساة أو بعدها فأين يمكن أن يذهب؟ الحصان مخلوق اجتماعي، فإذا تُرك لغريزته فإما أن يعود إلى كنغزبايلند أو

يذهب إلى مابلتون، فلماذا ينطلق إلى المستنقع؟ كان من المؤكد أن يراه شخص ما بعد كل هذا الوقت. ثم لماذا يخطفه الغجر؟ هؤلاء الناس يبتعدون دائماً حين يسمعون بوقوع مشكلات لأنهم لا يريدون أي إزعاج من الشرطة، ولا يمكن أن يكون عندهم أمل ببيع مثل هذا الحصان، فمن الواضح أنهم بأخذهم الحصان سيخاطرون مخاطرة كبيرة بلا فائدة.

- أين هو إذن؟

- لقد قلت من قبل إنه ربما ذهب إلى كنغزبايلند أو إلى مابلتون، وبما أنه ليس في كنغزبايلند فهو في مابلتون إذن. لنأخذ هذا الكلام كفرضية ممكنة ولنفكر إلى أين ستقودنا. حسناً، هذا الجزء من المستنقع صلب للغاية وجافّ كما أشار المفتش، ولكنه ينحدر باتجاه مابلتون، ويمكنك أن ترى من هنا ذلك الوادي البعيد. لا بد أنه كان طينياً جداً يوم الإثنين الماضي، فإذا كان افتراضنا صحيحاً فقد عبر الحصان ذلك الوادي هناك في تلك النقطة التي يجب أن نبحث فيها عن آثاره.

كنا نسير ببطء خلال هذه المحادثة، وبعد عدة دقائق وصلنا إلى الوادي الذي أشار إليه، وبناء على طلب هولمز مشيت على الجانب الأيمن ومشى هو على الجانب الأيسر، ولم أكن قد تجاوزت خمسين خطوة حين سمعته يصرخ ويلوّح لي بيديه. كانت آثار الحصان محدَّدة بوضوح على الأرض الطرية أمامه، والحدوة التي في جيبه طابقت الأثر تماماً!

قال هولمز: أرأيت قيمة الخيال؟ إنها الصفة الوحيدة التي يفتقدها غريغوري، فقد تخيلنا ما يُحتمَل أن يكون قد حدث، وبالتحقق من هذا الافتراض وجدنا أننا على حق. والآن لنتابع.

عبرنا المستنقع ومشينا فوق ربع ميل من التربة الجافة الصلبة، ثم انحدرت الأرض ثانية، وعندها وجدنا الآثار، ثم فقدناها لنصف ميل لنكتشفها مرة أخرى بالقرب من مابلتون، وكان هولمز هو أول من رآها، فوقف يشير وعلى وجهه نظرة انتصار، إذ كانت هناك آثار أقدام لإنسان بجانب آثار الحصان.

صحت قائلاً: لقد كان الحصان وحده من قبل!

- هذا صحيح تماماً، كان وحده قبل ذلك... يا للعجب! ما هذا؟

دارت الآثار المزدوجة دورة حادّة واتخذت اتجاه كنغزبايلند، فصفر هولمز! وتتبعنا الأثر وعينا هولمز عليه، وتصادف أنني كنت أنظر قليلاً إلى أحد الجوانب فرأيت ما أدهشني، فالآثار نفسها تعود في الاتجاه المعاكس.

قال هولمز عندما وضّحت ذلك: لقد كسبت واحدة يا واطسون، فقد وفّرتَ علينا مسافة كبيرة كنا سنمشيها ونعود ثانية إلى المكان نفسه. دعنا نتبع الأثر الراجع.

لم يكن علينا الذهاب بعيداً، إذ انتهى الأثر عند بداية طريق ممهَّد يؤدّي إلى بوابات حظائر مابلتون، وعند اقترابنا خرج سائس من البوابة وقال: لا نريد أي متطفلين هنا.

قال هولمز واضعاً إصبعه وسبابته في جيب صدريته: أريد فقط أن أسأل سؤالاً. هل أكون مبكراً جداً إذا أتيت لرؤية سيدك، السيد سايلاس براون، في الخامسة من صباح الغد؟

- بوركت يا سيدي، إذا كان أحدٌ يستيقظ في هذه الساعة فسيكون هو. إنه أول المستيقظين دائماً. لحظة، ها هو ليجيب عن سؤالك بنفسه.

وحين رأى هولمز يهمّ بإعطائه نقوداً قال: لا يا سيدي، لا؛ إذا رآني ألمس نقودك فسيكلفني هذا عملي. فيما بعد إذا أردت.

وبينما كان هولمز يعيد المال إلى جيبه خرج رجل عنيف كبير في السن وفي يده سوط صيد وصاح قائلاً: ما هذا يا داوسن؟ دع الثرثرة واذهب لعملك.

ثم التفت إلى هولمز وقال: وأنت؟ ماذا تريد؟

قال هولمز بأعذب الأصوات: عشر دقائق لأتكلم معك يا سيدي العزيز.

- ليس لديّ الوقت لأتكلم مع كل مَن هَبّ ودَبّ. لا نريد غرباء هنا، اذهب وإلا أطلقت الكلب في إثرك.

مال هولمز إلى الأمام وهمس بشيء في أذن الرجل، فاهتز بعنف واحتقن وجهه حتى جبهته وصاح قائلاً: إنها كذبة... كذبة شيطانية!

- فليكن، هل سنتجادل حولها هنا في العلن أم في صالة استقبالك؟

- حسناً، ادخل إذا أردت.

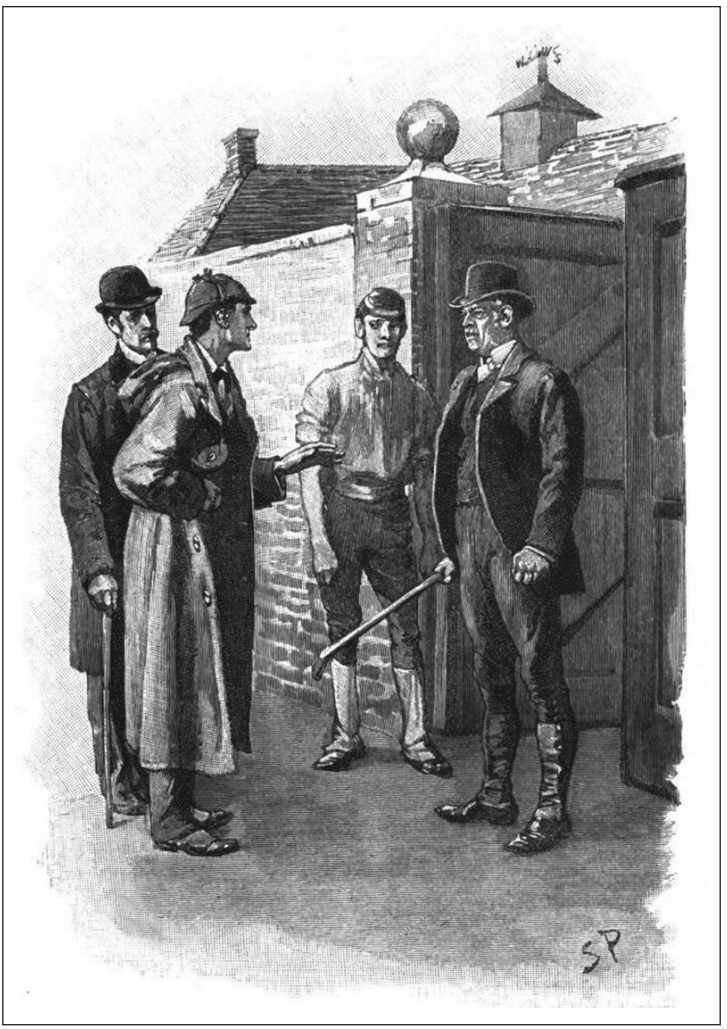

رسم سدني باجيت (١٨٩٢) Sidney Paget (1892)

ابتسم هولمز وقال: لن أتركك أكثر من بضع دقائق يا واطسون. والآن يا سيد براون أنا تحت تصرفك.

مرت عشرون دقيقة وبدأ الظلام يلفّ المكان قبل أن يظهر هولمز والسيد سايلاس براون ثانية. لم يحدث قط أن رأيت تغيّراً كالذي حدث للسيد براون في ذلك الوقت القصير؛ كان وجهه شاحباً جداً وحبّات العرق تلمع على حاجبَيه، وكانت يده تهتز لدرجة أن سوط الصيد طار من يده كغصن في مهب الريح، كما أن أسلوبه المتغطرس والمتهجم قد اختفى أيضاً، فقد مشى منحنياً بجوار رفيقي ككلب يمشي مع سيده!

قال: سوف تُنفَّذ تعليماتك، ستُنفَّذ كلها.

التفت هولمز إليه وقال: يجب أن لا يقع أي خطأ.

جفل الرجل حين قرأ التهديد في عينيه وقال: نعم، لن يقع أي خطأ، سأكون هناك. هل أغيّره أولاً؟

فكّر هولمز قليلاً ثم انفجر ضاحكاً وقال: لا، لا تفعل، سأكتب لك عنه، لا مجال للخداع الآن وإلا...

- يمكنك أن تثق بي، يمكنك أن تثق بي.

- أجل، أعتقد أنني أستطيع ذلك. حسناً، ستصلك أخبار مني غداً.

استدار على عقبَيه متجاهلاً اليد المرتعشة التي مدّها الرجل الآخر إليه، وانطلقنا إلى كنغزبايلند.

* * *

قال هولمز فيما كنا نسير متثاقلَين: لم أقابل إلا نادراً تركيبة كاملة من الشراسة والجبن واللؤم كالسيد سايلاس براون!

- الحصان بحوزته إذن؟

- حاول أن يتملص من الموضوع بالتهديد، ولكني وصفت له أفعاله ذلك الصباح بدقّة حتى اقتنع بأنني كنت أراقبه. لقد لاحظت بالطبع الشكل الغريب لمقدمة الحذاء في الأثر وأن حذاءه الطويل قد تطابق معه بالضبط. وقد وصفت كيف أنه وطبقاً لعادته كان الأول في النزول حينما لاحظ حصاناً غريباً يتجول في المستنقع بلا هدف، وكيف أنه ذهب إليه ودُهش حين أدرك من الغُرّة البيضاء في جبينه (والتي كانت سبباً لاسمه) أن المصادفة وضعت في قبضته الحصانَ الوحيد الذي يمكنه هزيمة الحصان الذي راهن عليه، وعند ذلك وصفت له كيف أن ردّة فعله الأولى كانت أن يعيده إلى كنغزبايلند، وكيف أن الشيطان أظهر له أن بإمكانه أن يخفي الحصان حتى ينتهي السباق، فرجع به ليخفيه في مابلتون... حين أخبرته بكل التفصيلات استسلم وفكر فقط في إنقاذ نفسه.

- ولكن حظائره فُتِّشت!

- حسناً، لن يُعدم الحيلة راعي خيول قديم مثله.

- ولكن ألا تخشى أن تترك الحصانَ في قبضته الآن حيث إن لديه دافعاً كبيراً لإيذائه؟

- يا صديقي العزيز، سوف يحرسه كبؤبؤ عينيه، فهو يعرف أن أمله الوحيد في الرحمة يكمن في إعادته سليماً.

- لم يَبدُ لي أن الكولونيل روس من الأشخاص الذين يُحتمَل أن يُظهِروا الرحمة في أي حال من الأحوال.

- هذا الأمر لا يتوقف على الكولونيل روس. حين أتبع طرقي الخاصة فأنا مَن يختار أن يخبره أو لا يفعل، وهذا من مميزات كوني غير مكلَّف رسمياً. لا أعرف إن كنتَ لاحظت -يا واطسون- أن تصرفات الكولونيل نحوي يشوبها القليل من العجرفة، لذلك فمن حقي الآن أن أحصل على بعض التسلية على حسابه. لا تقُل له شيئاً عن الحصان.

- بالتأكيد لن أفعل دون إذنك.

- وبالطبع هذا كله لا يكاد يكون شيئاً مقارَنة بمعرفة قاتل جون ستراكر.

- وهل ستكرّس نفسك لهذا الأمر؟

- بالعكس، سنعود إلى لندن بقطار الليل.

صُعقت حين سمعت كلمات صديقي، فلم يمضِ على وجودنا في ديفونشاير إلا ساعات قلائل، وكان تخلّيه عن تحقيق بدأه ببراعة أمراً غيرَ مفهوم!

لم أستطع انتزاع أي كلمة أخرى منه حتى عدنا إلى منزل السائس، وكان الكولونيل والمفتش في انتظارنا في صالة

الاستقبال، فقال هولمز: سأرجع أنا وصديقي إلى المدينة في قطار الليل السريع. لقد تمتّعنا بهواء دارتمور الجميل.

فتح المفتش عينيه دهشةً، أما الكولونيل فلوى شفتيه بسخرية وقال: إذن فقد يئست من القبض على قاتل المسكين ستراكر؟

رفع هولمز كتفيه وقال: توجَد بعض الصعوبات في الطريق بالتأكيد، ولكن الأمل يحدوني على أية حال بأن حصانك سيبدأ السباق يوم الثلاثاء، وأرجو أن يكون فارسك جاهزاً. هل يمكن أن أطلب صورة للسيد جون ستراكر؟

أخرج المفتش صورة من ظرف وسلّمها له، فقال هولمز: أنت تتوقع كل طلباتي يا عزيزي غريغوري! أرجو أن تنتظروني هنا لحظة؛ عندي سؤال للخادمة.

قال الكولونيل بفظاظة بعدما غادر صديقي الغرفة: يجب أن أقول إنني أشعر بقليل من خيبة الأمل في مستشارنا اللندني؛ لا أجد أننا وصلنا إلى شيء أكثر مما كنا عليه عندما وصل.

قلت: على الأقل لقد حصلت على تأكيده بأن حصانك سيسابق.

قال الكولونيل باستخفاف: أجل، حصلت على تأكيده، ولكني كنت أفضّل الحصول على الحصان.

كنت على وشك الردّ دفاعاً عن صديقي حين عاد إلى الحجرة قائلاً: الآن يا سادة، أنا جاهز تماماً للذهاب إلى

تافستوك.

عندما دخلنا إلى العربة كان واحد من صِبْية الحظيرة يفتح الباب لنا، ويبدو أن فكرة مفاجئة خطرت لهولمز لأنه مال إلى الأمام ولمس كُمّ الفتى ثم قال: عندكم قليل من الخِراف في المضمار، من الذي يعتني بها؟

- أنا أفعل يا سيدي.

- هل لاحظت عليها شيئاً غريباً مؤخَّراً؟

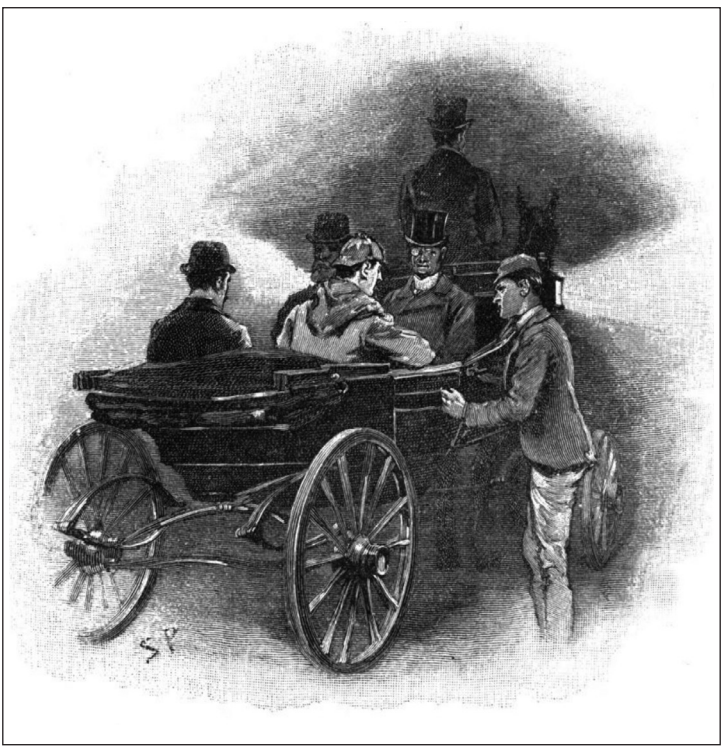

رسم سدني باجيت (١٨٩٢) Sidney Paget (1892)

- حسناً يا سيدي، إنه أمر غير ذي أهمية كبيرة؛ لقد أُصيبَ ثلاثة منها بالعرَج يا سيدي.

لاحظت أن هولمز مسرور جداً، فقد قهقه وفرك يديه ثم قال وهو يضغط على يدي: إنه تخمين موفَّق يا واطسون، تخمين موفَّق جداً.

ثم التفت إلى المفتش وقال: غريغوري، هل لي أن ألفت انتباهك لهذا الوباء الغريب بين الخراف؟ انطلق أيها الحوذي.

كان الكولونيل لا يزال يحمل ذلك التعبير الذي يدل على رأيه السيّئ في مقدرة رفيقي، ولكنني رأيت الاهتمام الشديد على وجه المفتش الذي سأل: هل تعتبر ذلك مهمّاً؟

- لأبعد الحدود.

- هل توجَد أي نقطة تودّ أن تلفت انتباهي إليها؟

- نعم، حادثة الكلب المثيرة للفضول ليلة الحادث.

- لكن الكلب لم يفعل شيئاً ليلة الحادث!

أجاب هولمز قائلاً: وهذا هو الأمر المثير للفضول.

* * *

بعد أربعة أيام كنت أنا وهولمز في القطار مرة ثانية متجهَين إلى وينشستر لنرى سباق كأس ويسكس، وقد قابلنا الكولونيل روس حسب الميعاد خارج المحطة، حيث ذهبنا

في عربة تجرها الأحصنة إلى المضمار خلف المدينة. كان وجهه كئيباً وتصرفاته باردة إلى أقصى حدّ حين قال: لم أرَ حصاني بعد.

سأل هولمز: أظن أنك سوف تعرفه عند رؤيته؟

غضب الكولونيل جداً وقال: لقد شاركت في السباق لمدة عشرين عاماً ولم يسألني أحد مثل هذا السؤال من قبل، فالطفل الصغير قد يعرف «سلفر بليز» بجبهته البيضاء وقائمتيه الأماميتين المبرقشتين.

- كيف هي المراهنة؟

- حسناً، هذا هو الجزء المثير للفضول في الموضوع. كنت تستطيع الحصول على خمسة عشر صوتاً مقابل صوت واحد بالأمس، ولكن النسبة استمرّت في التقلص حتى أصبحت الآن بالكاد ثلاثة إلى واحد.

قال هولمز: آه، من الواضح أن شخصاً ما يعرف شيئاً.

عندما توقفت العربة في الحظيرة المسيَّجة القريبة من المدرّج الكبير نظرت إلى اللوحة لأرى الجياد المشاركة، وقال الكولونيل: لقد شطبنا اسم حصاننا الآخر ووضعنا أملنا كله على وعدك. يا للدهشة! ما هذا؟! «سلفر بليز» هو المرشَّح؟

دوّى الصوت في حلبة السباق يقول: خمسة إلى أربعة ضدّ سلفر بليز، خمسة إلى خمسة عشر ضدّ ديسبورو، خمسة إلى أربعة على المضمار.

صحت قائلاً: إن كل الستة هناك.

صاح الكولونيل روس بانفعال كبير: كل الستة هناك؟ حصاني سيشارك إذن! ولكنني لا أراه وأعلامي لم تمرّ!

- لقد مَرّ خمسة فقط، لا بد أن يكون هو هذا.

وفيما أنا أتكلم انطلق حصان قوي كستنائي اللون من حظيرة الوزن وأخذ يخبّ أمامنا وهو يحمل على ظهره أعلام الكولونيل المعروفة بالأحمر والأسود، فصاح صاحبه قائلاً: هذا ليس حصاني، هذا الوحش لا يحمل أي شعرة بيضاء في جسده! ما الذي فعلته يا سيد هولمز؟

قال صديقي برباطة جأش: حسناً، حسناً، لنرَ كيف سيتقدم.

أخذ ينظر عبر منظاري المكبّر لعدة دقائق، ثم قال: عظيم؛ بداية ممتازة. ثم صاح قائلاً: ها هم يجتازون المنحنى.

كنا نحظى برؤية ممتازة من العربة حيث كانوا قادمين في خطّ مستقيم. كانت الخيول الستة قريبة جداً بعضها من بعض، وفي منتصف الطريق ظهر الحصان التابع لحظائر مابلتون في المقدّمة، ولكن قبل أن تصل إلينا على أية حال قَلّ جهد ديسبورو وتقدم حصان الكولونيل فجأة فعبَرَ نقطة النهاية متقدماً على منافسه بست مسافات، في حين حَلّ إيريس، حصان الدوق بالمورال، في المركز الثالث بشكل سيّئ.

تنهد الكولونيل وهو يمرّر يده على عينيه ويقول: لقد

فزت بالسباق على أية حال. أعترف بأنني لا أفهم شيئاً من هذا... ألا تعتقد أنك احتفظت بهذا الغموض بما فيه الكفاية يا سيد هولمز؟

- بالتأكيد يا كولونيل ستفهم كل شيء. دعنا نذهب لنلقي معاً نظرة على الحصان.

أكمل قائلاً فيما كنا نتجه إلى حظيرة الوزن التي لا يُسمَح بدخولها إلا لأصحاب الخيول وأصدقائهم فقط: ها هو، عليك فقط أن تغسل وجهه وقوائمه ببعض الكحول وسيعود «سلفر بليز» كما كان.

- كم تدهشني يا سيد هولمز!

- لقد منحت نفسي الحرية لإشراكه في السباق كما جاء.

- سيدي العزيز، لقد صنعت معجزة! الحصان يبدو بحالة جيدة ولياقته عالية. إنه في أحسن حالاته، وأنا أدين لك بألف اعتذار لشكّي بقدراتك. لقد قدمت لي خدمة عظيمة باستعادتك حصاني، وسوف تكون الخدمة أعظم إذا استطعت وضع يديك على قاتل جون ستراكر.

قال هولمز بهدوء: لقد فعلت ذلك.

حملقنا كلانا إليه بدهشة، وسألته أنا: وجدته؟! أين هو إذن؟!

- إنه هنا.

- هنا؟ أين؟

- إنه بصحبتي في الوقت الحاضر.

احتقن الكولونيل غضباً وقال: أنا مدرك تماماً أنني مَدين لك يا سيد هولمز، ولكني أعتبر أن ما قلته للتوّ مزاح ثقيل جداً أو أنه إهانة لا تُغتفَر.

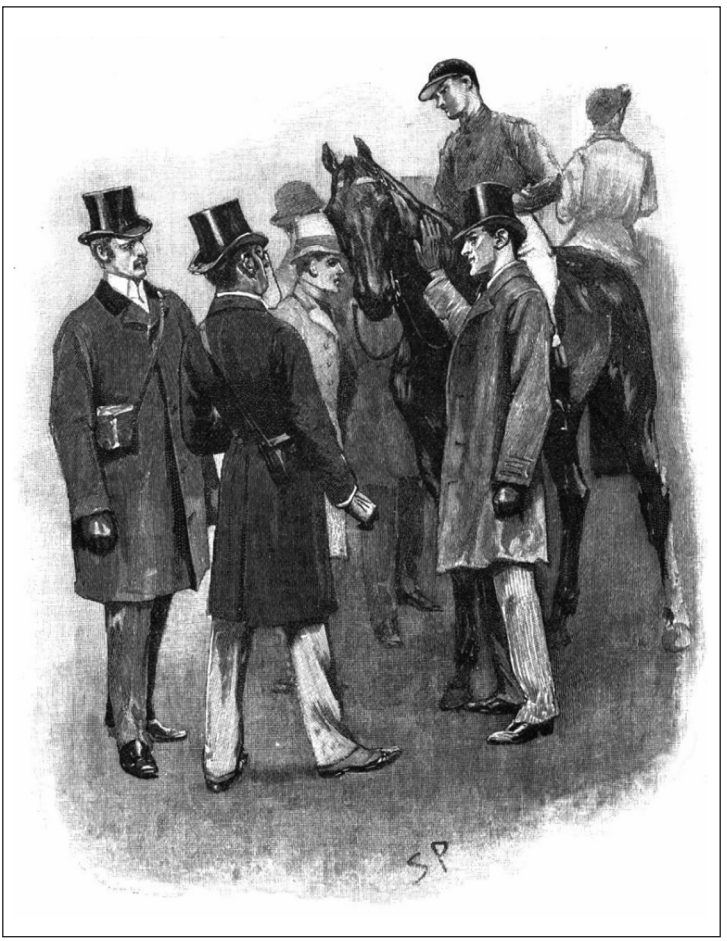

رسم سدني باجيت (١٨٩٢) Sidney Paget (1892)

ضحك شيرلوك هولمز وقال: أؤكد لك -يا سيدي الكولونيل- أنني لم أربط بينك وبين الجريمة، فالقاتل الحقيقي يقف خلفك في هذه اللحظة.

صحت أنا والكولونيل معاً: الحصان؟!

- نعم، الحصان، وقد يخفّف من ذنبه أن أقول لكم إنه كان دفاعاً عن النفس وإن جون ستراكر كان رجلاً غير جدير بثقتك. ولكنني أسمع الجرس الآن وأتوقع أن أكسب القليل من المال في السباق القادم، لذلك أقترح تأجيل الشرح المطوَّل لوقت أكثر ملاءمة.

* * *

انفردنا بزاوية في إحدى عربات القطار الخاصة في ذلك المساء فيما كنا عائدَين إلى لندن، وأظن أن الرحلة بدَت قصيرة لي وللكولونيل فيما كنا نستمع إلى سرد رفيقنا للأحداث التي جرَت في حظائر دارتمور ليلة الإثنين وعن كيفية كشفه لها.

قال: أعترف بأن النظريات التي كوّنتها من تقارير الصحف كانت بعيدة تماماً عن الصواب، ومع ذلك فقد كانت فيها بعض الدلالات، لولا أن تفصيلات أخرى طغت عليها وأخفت أهميتها، لذلك كنت مقتنعاً عندما ذهبت إلى ديفونشاير بأن فتزروي سمبسون هو المتهَم الحقيقي، بالرغم من أنني رأيت أن الدليل ضدّه كان غيرَ مكتمل بأي حال. كان ذلك حين كنت في العربة في الوقت الذي كنا قد وصلنا فيه إلى منزل السائس، حيث خطرت لي أهمية لحم الضأن

بالكاري، ولعلكم تتذكرون أنني كنت شارد الذهن وبقيت في العربة بعد أن نزلتم كلكم، فقد كنت أتعجب في عقلي كيف أنني أغفلت هذا الدليل الواضح.

قال الكولونيل: أعترف بأنني لم أستطع حتى الآن معرفة كيف سيساعدنا هذا.

قال هولمز: تلك كانت الحلقةَ الأولى في سلسلة التحليل المنطقي، فالأفيون المطحون ليس عديم الطعم. إن طعمه مقبول ولكنه ملحوظ، فمَن يأكله سيكتشفه، وقد يتوقف عن الأكل، لذلك كان الكاري هو الوسيلة الوحيدة التي ستخفي طعمه، ولا يوجَد أي أسلوب معقول يمكّن هذا الغريب من تقديم الكاري في بيت السائس في تلك الليلة، وسوف تكون مصادفة عظيمة أن نفترض أنه جاء ومعه الأفيون المطحون وتصادف في تلك الليلة بالذات أن قُدِّم الصنف الذي سيُخفي طعمه. لا، هذا غير منطقي، وبهذا صار سمبسون مستبعَداً من القضية وتركز اهتمامي على ستراكر وزوجته، وهما الشخصان الوحيدان اللذان كان بإمكانهما اختيار لحم الضأن بالكاري للعشاء في تلك الليلة، وقد أُضيفَ الأفيون بعد أن وُضع الطعام لصبي الحظيرة، إذ تناول الآخرون الطعام نفسه ولم يحدث لهم أي تأثير سيّئ، وكان بمقدور أي منهم الوصول إلى الطبق دون أن تراه الخادمة.

قبل أن أحسم إجابة هذا السؤال كنت قد أدركت أهمية صمت الكلب، حيث إن استدلالاً واحداً حقيقياً يوحي بغيره،

فحادثة سمبسون أظهرت لي أن في الحظائر كلباً، ومع ذلك فقد دخل شخصٌ ما وأخذ الحصانَ دون أن ينبح الكلب ليوقظ الصبيان في الليل؛ لقد كان -إذن- شخصاً يعرفه الكلب جيداً.

كنت قد اقتنعت فعلاً (أو على وشك الاقتناع) بأن ستراكر ذهب إلى الحظيرة في جوف الليل وأخرج الحصان لسبب ما، بالطبع لسبب غير شريف، وإلا فلماذا خَدّر صبيّ الحظيرة؟ ورغم ذلك كنت في حيرة لأنني لم أعرف السبب. وقد عرفت في الماضي حالات حصل السائسُ فيها على مبالغ كبيرة عن طريق وضع رهانات ضدّ حصانه من خلال الوكلاء، وبعد ذلك يحتال لمنع حصانه من الفوز، وذلك بسحب الفارس في بعض الأحيان، وأحياناً أخرى بوسائل أكثر غموضاً. فماذا كان الأمر هنا؟

تمنّيت أن تساعدني محتويات جيبه في الوصول إلى استنتاج نهائي، وهذا ما حدث، فلا يمكن أن تنسوا السكين الرائع الذي وجدناه في يد القتيل، وهو سكين لن يختاره رجل عاقل كسلاح، بل هو -كما أخبرَنا الدكتور واطسون- نوع من السكاكين التي تُستخدَم في العمليات الدقيقة في الجراحة، وكان سيستخدمه في عملية دقيقة تلك الليلة.

لا بد أنك تعرف -لخبرتك في أمور السباق يا كولونيل روس- أن جرحاً بسيطاً يمكن إحداثه فوق أوتار العضل في باطن ركبة الحصان، ويتمّ ذلك تحت الجلد حتى لا يترك أي أثر. الحصان المعالَج بهذه الطريقة سيظهر عنده عرَج خفيف

قد يُعزَى إلى إجهاد في التمرين أو قليل من الروماتزم، ولكن أحداً لن يعتبره مكيدة مدبَّرة.

صاح الكولونيل: وغد... خبيث!

قال هولمز: لدينا أيضاً تفسير لرغبة ستراكر في أخذ الحصان إلى الخارج في المستنقع، فمخلوق نشيط بهذه الدرجة سيوقظ النائمين مهما كان نومهم عميقاً عندما يحسّ بطرف السكين، لذلك كان من الضروري إجراء العملية في الهواء الطلق.

صاح الكولونيل: لقد كنتُ أعمى! بالطبع كان هذا هو سبب حاجته إلى الشمع وعيدان الثقاب.

- بلا شك، وقد حالفني الحظ حين فحصت أغراضه، فلم أكتشف فقط طريقة الجريمة، بل اكتشفت دوافعها أيضاً. إن رجلاً بخبرتك يا كولونيل يعرف أن أياً من الناس لا يحمل فواتير غيره في جيبه، فأغلبنا عنده ما يكفيه من فواتيره الخاصة، لذلك استنتجت على الفور أن ستراكر يعيش حياة مزدوجة وأن له علاقة أخرى، فطبيعة الفاتورة أظهرت وجود سيدة في القضية، سيدة ذات ذوق مكلّف. ومهما كنتَ كريماً مع عمالك فلا يمكن أن نتوقع أن يشتري أحدهم ثوباً عادياً لزوجته بثلاثين جنيهاً! وقد سألت السيدة ستراكر عن الثوب فلم تعرفه، وبعد أن تأكدت أنه لم يصلها سجّلت ملاحظة عن محل الملابس، وشعرت أن ذهابي إليه مع صورة ستراكر سيحسم الأمر ويُثبت أن ديربشاير شخصية خيالية اخترعها

ستراكر للتضليل.

منذ ذلك الوقت صار كل شيء بسيطاً. لقد قاد ستراكر الحصان إلى الحفرة حتى لا يرى أحدٌ الضوء، وكان سمبسون قد أسقط رباط عنقه في أثناء هربه فالتقطه ستراكر، ربما لأنه أراد استخدامه في ربط ساق الحصان. وحين وصل إلى المنحدر ذهب خلف الحصان وأشعل ضوءاً، ولكن الحصان فزع من الوهج المفاجئ، ولعله استشعر بغريزة الحيوان الغريبة أن الرجل ينوي إيذاءه، فهاجمه. وقد ضربت حدوة الحصان الحديدية جبهته بكل قوة، وكان قد خلع معطفه رغم المطر حتى يستطيع تنفيذ مهمّته الدقيقة، وعندما وقع جُرح فخذُه بالسكين.

صاح الكولونيل: رائع، رائع! كأنك كنت هناك!

- كان تخميني الأخير (وأنا أعترف أنه كان بعيداً جداً) حين خطر ببالي أن شخصاً ذكياً مثل ستراكر لن ينفّذ عملية دقيقة كشقّ الأوتار دون تدريب مسبق، فما الذي يمكن أن يتدرب به؟ عندها رأيت الخراف، وسألت سؤالاً أثبت -لدهشتي- أن تخميني كان صحيحاً. وعندما رجعت إلى لندن زرت محل الملابس، فتعرف البائع هناك على صورة ستراكر، العميل الممتاز! كان اسمه عندهم هو ديربشاير، وله زوجة جميلة جداً تميل إلى الأثواب الغالية! ولا شك أنها أغرقته في الديون حتى أذنيه وقادته إلى تلك المكيدة البائسة.

صاح الكولونيل: لقد وضّحتَ كل شيء ما عدا شيئاً

واحداً؛ أين كان الحصان؟

- لقد جفل فابتعد عن المكان، ثم وقع في يد أحد جيرانك فاعتنى به تماماً. يجب أن نتحلى بالرحمة في هذا الموضوع.

ثم أشار إلى الطريق وقال: لقد وصلنا إلى تقاطع كلافام إذا لم أكن مخطئاً، وسوف نصل إلى محطة فكتوريا خلال أقل من عشر دقائق، فإذا أردت أن تشاركنا شرب كوب من الشاي الساخن في مسكننا فسوف أكون سعيداً بتقديم أي تفصيلات أخرى تهمّك معرفتها.

* * *

مذكرات شيرلوك هولمز
(٢)

لُغز الطَّرْد البَريدي

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية
في عدد كانون الثاني (يناير) ١٨٩٣

كان يوماً ملتهب الحرارة من أيام آب (أغسطس)، وكان شارع بيكر كالفرن، وبدا انعكاس أشعة الشمس على الحجر الأصفر للبيت الواقع في الناحية الأخرى من الطريق مؤلماً للعينين، حتى لَيصعب تصديق أن هذه الجدران هي نفسها التي بدت كئيبة في ضباب الشتاء. وأشار ميزان الحرارة إلى ثلاث وثلاثين درجة مئوية، ولكنها لم تمثل صعوبة بالنسبة لي، فقد دربتني الفترة التي شاركت فيها في الخدمة العسكرية في الهند على احتمال الحرارة أكثر من احتمال البرودة.

كانت ستائرنا نصف مغلَقة، ورقد هولمز على الأريكة يقرأ خطاباً جاءه مع بريد الصباح مرة بعد أخرى. ولم تحمل صحيفة الصباح أي أخبار مشوقة، فقد انفضّ البرلمان وغادر الناس المدينة. وأحسست برغبة في قضاء إجازة وسط غابات نيوفورست أو فوق حصى بحر الجنوب، ولكن ضعف حسابي المصرفي حملني على تأجيل عطلتي. أما رفيقي فإنه لا يجد أي جاذبية لا في البر ولا في البحر، بل هو يحب أن يبقى وسط خمسة ملايين شخص ليمد شعيرات استشعاره فتجري بينهم وتبحث عن كل إشاعة أو شك في جريمة غير محلولة، فتقدير جمال الطبيعة ليس له مكان بين مواهبه المتعددة.

حين وجدت أن هولمز مستغرق جداً ولا مجال لمحادثته رميت بالجريدة المملة جانباً واضطجعت في مقعدي وغرقت

في تفكير عميق، وإذا بصوت رفيقي يقتحم عليّ أفكاري قائلاً: أنت على حق يا واطسون، تلك كانت أكثرَ الطرق جنوناً في تسوية النزاع.

هتفت قائلاً: الأكثر جنوناً، نعم.

وفجأة أدركت أنه نطق بالأفكار التي كنت أقلّبها في عقلي، فاعتدلت في مقعدي وحدقت إليه بذهول واضح وصحت قائلاً: ما هذا يا هولمز؟! لقد فاق ذلك كل ما أستطيع تخيله!

ضحك من حيرتي بعمق وقال: هل تذكر حين قرأت لك منذ بعض الوقت فقرة من واحدة من قصص إدغار ألان بو، وفيها يتتبع الباحث المنطقي فكرة من أفكار رفيقه؟ وقتها كنتَ

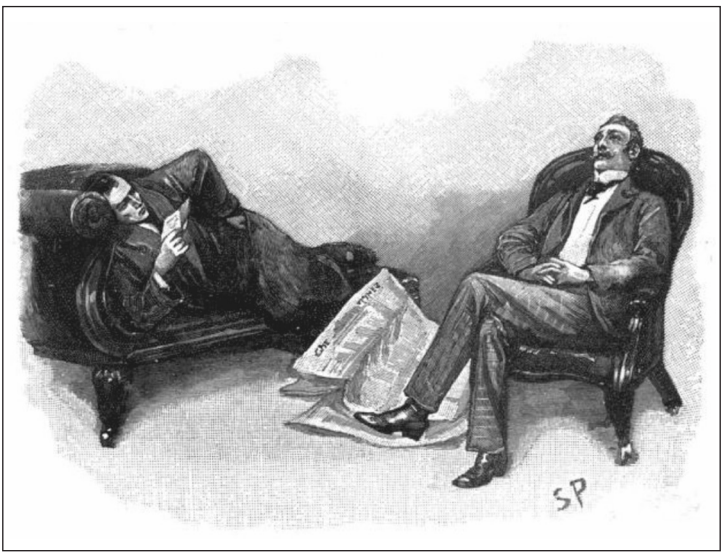

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

ميالاً إلى التعامل مع الموضوع على أنه مجرد اختلاق من المؤلف، وحين أخبرتك أن من عادتي أن أفعل ذلك باستمرار أبديت شكك وعدم تصديقك.

- لا!

- ربما ليس بلسانك يا عزيزي واطسون، ولكن بحاجبَيك بالتأكيد، وحين رأيتك تلقي بالجريدة وتغرق في سلسلة من الأفكار كنت سعيداً جداً لأنني حظيت بفرصة لقراءة أفكارك ثم اقتحامها كدليل على صلتي بك.

ولكنني كنت مازلت بعيداً عن الاقتناع، فقلت: ولكن في المثال الذي قرأته لي يستخلص الباحث استنتاجاته من أفعال الرجل التي يلاحظها، وإذا كان ما أتذكره صحيحاً فقد اصطدم بكومة أحجار ونظر إلى النجوم... أما أنا فكنت أجلس في مقعدي بهدوء، فما هي الإشارات التي استفدتَ منها؟

- أنت تظلم نفسك، فالملامح وُهبت للإنسان كوسيلة للتعبير عن مشاعره، وملامحك معبّرة جداً.

- أتقصد أن تقول إنك قرأت سلسلة أفكاري من خلال ملامحي؟!

- نعم، ولا سيما عينيك. قد لا تستطيع بنفسك أن تتذكر كيف تبدأ أحلام يقظتك.

- نعم، لا أستطيع.

- سأخبرك إذن. بعد أن رميتَ الجريدة (وهو العمل

الذي لفت انتباهي إليك) جلستَ نصف دقيقة بلا أي تعبير، ثم استقرَّت عيناك على صورة الجنرال غوردن في إطارها الجديد، وفهمت من التعبير المرتسم على وجهك أن سلسلة أفكارك بدأت ولكنها لم تحملك بعيداً بعد، ثم انتقلت عيناك بشكل سريع إلى صورة هنري وارد بيشر التي تضعها فوق كتبك بلا إطار، ثم نظرت إلى الجدار. وبالطبع كان المعنى واضحاً، فقد كنت تفكر في أنك لو وضعت الصورة في إطار فسوف تغطي المكان الخالي من الجدار وتتوافق مع صورة غوردن هناك.

هتفت قائلاً: لقد تتبعت أفكاري بروعة!

- حتى الآن كان الأمر سهلاً، ولكنك عدت بأفكارك إلى بيشر وأمعنت النظر كما لو كنت تدرس صفات شخصيته من خلال ملامحه، وبعد ذلك بدأت عيناك بالتغضّن، ولكنك مضيت في النظر بإمعان وبدا وجهك مستغرقاً في التفكير. كنت تسترجع الأحداث البارزة في سيرة بيشر، وكنتُ أعلم جيداً أنك لن تفعل ذلك دون التفكير بالمهمة التي نفّذها لمصلحة الشمال وقت الحرب الأهلية، لأنني أتذكر كيف عبرتَ عن سخطك العميق للطريقة التي استقبله بها الناس. ولأن مشاعرك كانت قوية تجاه هذا الموضوع فقد عرفت أنك لن تستطيع التفكير في بيشر دون التفكير بهذا الأمر أيضاً، وعندما وجدت عينيك تبتعدان عن الصورة بعد ذلك بدقيقة شككت أن تفكيرك قد تحول إلى الحرب الأهلية، وحين لاحظت انطباق شفتيك وبريق عينيك وقبضة يديك كنت متأكداً أنك تفكر حقاً

في الشجاعة التي أظهرها الجانبان في ذلك الصراع اليائس. وبعدها أصبح وجهك أكثر حزناً وهززت رأسك؛ لقد كنتَ تمعن التفكير في الحزن والفزع والموت بلا فائدة، وتسلّلَت يدُك نحو جرحك القديم وظهرت ابتسامة مرتعشة على شفتيك أظهرَت لي أن الجانب غير المعقول من هذا الأسلوب في حل الخلافات العالمية قد اقتحم تفكيرك، وعند هذه النقطة اتفقتُ معك على أن الحرب كانت خياراً مجنوناً منافياً للعقل، وكنت سعيداً بمعرفة أن كل تخميناتي كانت صحيحة.

قلت: بالتأكيد. والآن بعد أن شرحتَ الأمر فعليّ الاعتراف بأنني مازلت مذهولاً كما كنت من قبل.

- لقد كان الأمر بسيطاً جداً يا عزيزي واطسون، وأؤكد لك أنني لم أكن لألفت انتباهك إليه لو لم تُظهِر عدمَ التصديق في ذلك اليوم. على أي حال فإن بين يدي الآن مشكلة صغيرة قد تكون أكثر صعوبة في حلها من مقالي الصغير عن قراءة الأفكار. هل لاحظت في الصحيفة خبراً صغيراً يشير إلى المحتويات الغريبة التي كانت في علبة أُرسلت بالبريد إلى الآنسة كوشنغ التي تسكن في شارع كروس في كرويدن؟

- لا، لم أرَ شيئاً من هذا.

- لا بد أنك أغفلته إذن. ناولني الجريدة، آه، ها هو تحت العمود المالي، أرجو أن تقرأه بصوت عال.

التقطت الجريدة التي قذفها باتجاهي ثانية وقرأت المقطع الذي كان عنوانه «الطرد الرهيب»، وقد جاء فيه:

الآنسة سوزان كوشنغ التي تعيش في شارع كروس في كرويدن كانت ضحية لِما يجب أن نعتبره مزاحاً مثيراً للاشمئزاز بطريقة غريبة، ما لم تَجِدَّ ملابساتٌ سيّئة للحادثة. ففي الثانية بعد ظهر أمس استلمت بالبريد عبوة صغيرة ملفوفة في ورق بني وبداخلها صندوق من الورق المقوى مملوء بالملح غير المكرر، وحين فرّغت الآنسة كوشنغ الصندوق أصيبت بالفزع لأنها وجدت فيه أذنين بشريتين يبدو أنهما قد انتُزعتا من صاحبهما حديثاً! وقد شُحن الصندوق من قسم الطرود في بلفاست صباح اليوم السابق، ولم يظهر عليه أي دليل على المرسل.

ويزداد الأمر غرابة حين نعرف أن الآنسة كوشنغ سيدة عزباء في الخمسين من عمرها تعيش حياة منعزلة وليس لها إلا القليل من المعارف ممن يمكن أن يراسلوها، ولذلك فمن النادر أن تتلقى أي شيء بالبريد. وقد أجَّرت شققاً في منزلها لثلاثة من طلبة الطب منذ عدة سنوات عندما كانت تسكن في بنغ، ولكنها اضطُرت للتخلص منهم بسبب ضوضائهم وعاداتهم غير المنظمة. وفي رأي الشرطة فإن هذه الجريمة قد ارتُكبت في حق الآنسة كوشنغ على يد هؤلاء الشبان الذين ربما حملوا لها الضغينة ورجوا أن يخيفوها بإرسال أذنين حصلوا عليهما من المشرحة، واحتمال هذه النظرية يرجع إلى حقيقة أن واحداً من هؤلاء الطلبة أيرلندي، وحسب معرفة الآنسة كوشنغ فقد كان من بلفاست.

في الوقت الحاضر يجري التحقيق في هذا الموضوع بنشاط، حيث يتولى مسؤوليةَ القضية السيد ليستراد، وهو واحد من أذكى المحققين.

قال هولمز عندما أنهيت القراءة: هذا هو سير الأحداث حسب ما أوردَته جريدة «ديلي كرونيكل». والآن لننتقل إلى صديقنا ليستراد، فقد تسلمت منه هذا الصباح هذه الرسالة:

أظن أن هذه القضية في مجال تخصصك، فقد كنا نأمل أن نكشف الأمر ولكننا وجدنا صعوبة في الحصول على شيء نبدأ العمل به.

أرسلنا برقية لمكتب بريد بلفاست بالطبع، ولكنا وجدنا أن عدداً كبيرا من الطرود قد سُلِّم في ذلك اليوم، وليست لديهم أي وسيلة للتعرف على هذا الطرد بالذات أو تذكر مرسله.

إن الصندوق المرسَل هو صندوق تبغ من الحجم الذي يستوعب ربع كيلوغرام، وهو لا يساعدنا بأي حال. لا تزال نظرية طلبة الطب تبدو لي الأكثر احتمالاً، ولكن إذا كان لديك بعض الوقت فيسعدني أن أراك. وسوف أكون في بيتي أو في مركز الشرطة.

ثم عقب هولمز قائلاً: ما رأيك يا واطسون؟ هل يمكن أن تتحمل الحرارة وتذهب معي إلى كرويدن لتحظى بقضية تضيفها إلى سجلك؟

- لقد كنت أتشوق لعمل شيء ما.

- ستحظى بذلك إذن. اقرع الجرس للبواب وقل له أن يطلب لنا عربة أجرة، وسوف أعود خلال دقائق بعد أن أبدل ملابسي.

* * *

هطل مطر غزير ونحن في القطار، وكانت الحرارة في كرويدن أقل منها في المدينة. وكان هولمز قد أرسل برقية، فوجدنا ليستراد ينتظرنا في المحطة، وقد وجدته رجلاً نحيلاً نشيطاً متربصاً أشبه بحيوان الصيد!

مشينا نحو خمس دقائق لنصل إلى شارع كروس حيث تسكن الآنسة كوشنغ. كان شارعاً طويلاً جداً منازلُه مكونةٌ من طابقين من الحجر، وكانت منظمة أنيقة ذات درجات حجرية بيضاء. وكانت هناك مجموعات صغيرة من السيدات وقد ارتدين المئزر وانهمكن في القيل والقال على أبواب المنازل.

في منتصف الشارع توقف ليستراد ودق على أحد الأبواب، ففتحته خادمة صغيرة قادتنا إلى الغرفة الأمامية حيث جلست الآنسة كوشنغ. كانت سيدة ذات وجه هادئ وعينين واسعتين لطيفتين وشعر أشيب تلتوي أطرافه على صدغيها من الجانبين، وكان على حِجْرها غطاء مطرز، وقد وضعت على مقعد بلا ذراعين بجانبها سلة من الخيوط الحريرية الملونة.

قالت حين دخل ليستراد: أتمنى أن تأخذ هذه الأشياء المريعة بعيداً... إنها في الغرفة الخارجية.

- هذا ما سأفعله يا آنسة كوشنغ. لقد احتفظت بها هنا حتى يراها السيد هولمز في حضورك.

- ولماذا في حضوري يا سيدي؟!

- لأنه قد يسألك أي سؤال.

- ما الفائدة من سؤالي أية أسئلة وقد قلت لكم إنني لا أعرف أي شيء عن الموضوع؟

قال هولمز بطريقة مهدئة: تماماً يا سيدتي، لقد عانيتِ بما فيه الكفاية من هذا الأمر، فهو قد سبّب لك كثيراً من الإزعاج.

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

- بالفعل يا سيدي، فأنا امرأة هادئة أعيش حياة منعزلة، ولم يسبق أن نُشر اسمي في الصحف أو دخل رجال الشرطة إلى منزلي. لن أُدخل هذه الأشياء هنا يا سيدي، فلو أردت رؤيتها يجب عليك الذهاب إلى الغرفة الخارجية.

كانت تلك الغرفة سقيفة صغيرة في الحديقة الضيقة الممتدة خلف المنزل، وقد دخلها ليستراد فأحضر علبة من الورق الأصفر المقوى ومعها قطعة من الورق البنّي وقطعة من الخيط. وجلسنا جميعاً على مقعد في آخر الممر حين أخذ هولمز يفحص المواد التي قدمها له ليستراد واحداً بعد الآخر.

رفع الخيط أمام الضوء ثم شَمَّه وعلّق قائلاً: هذا الخيط مثير للاهتمام بشكل استثنائي. ما رأيك بهذا الخيط يا ليستراد؟

- إنه مُقَطرَن.

- بالضبط، إنه قطعة مُقَطرَنة من الحبل المجدول. وبالطبع لاحظت أن الآنسة كوشنغ قطعت الحبل بالمقص؛ هذا واضح من التنسيل المزدوج على الجانبين. هذا الأمر مهم.

قال ليستراد: لا أستطيع أن أرى أهمية ذلك.

- تكمن أهميته في أن العقدة تُركت سليمة، وهذه العقدة ذات طبيعة خاصة.

قال ليستراد: إنها ربطة دقيقة، وقد كتبتُ ملاحظة بهذا المعنى.

قال هولمز مبتسماً: يكفينا هذا عن الخيط إذن. والآن نأتي إلى غلاف الصندوق. إنه من الورق البنّي الذي تفوح منه رائحة البُنّ بوضوح. ماذا؟ ألم تلاحظها؟ أحسب أنه لا مجال للشك في ذلك. أما عن العنوان فإنه مكتوب بحروف غير منتظمة نوعاً ما. "الآنسة س كوشنغ، شارع كروس، كرويدن". وقد كُتب بقلم طرفُه عريض وبحبر رديء جداً، وكلمة «كرويدن» كتبت في الأصل بتهجئة غير صحيحة ثم أُصلحت بعد ذلك. ثم إن الذي أرسل الطرد رجل، فالكتابة ذكورية مميزة، وهو محدود التعليم وليس على معرفة بمدينة كرويدن. حتى الآن الأمور واضحة، وصندوق التبغ الأصفر هذا من فئة ربع الكيلو، ولا يميزه أي شيء سوى علامة لإصبعين في زاويته السفلى من جهة اليسار، وهو مملوء بملح غير معالَج من النوع المستخدَم في حفظ الجلد المدبوغ، وقد طُمرت هذه المحتويات الغريبة داخله.

في أثناء كلامه أخرج الأذنين، ثم وضع قطعة من الكرتون على ركبتيه وفحصهما بدقة، وملت أنا وليستراد إلى الأمام على جانبيه ورحنا ننظر منقّلَين بصرنا بين تلك القطع المرعبة والوجه المفكر المتلهف لرفيقنا. وأخيراً أعادهما إلى الصندوق وجلس لوهلة في تأمل عميق، ثم قال: لقد لاحظتَ بالتأكيد أن الأذنين غير متطابقتين؟

- أجل، لاحظت ذلك. ولكن لو أنها مزحة من بعض الطلبة من غرفة التشريح فمن السهل عليهم أن يحصلوا على أذنين مختلفتين بنفس سهولة حصولهم على أذنين متطابقتين.

- بالضبط، ولكن هذه ليست مزحة.

- هل أنت واثق؟

- الحدس يعارض هذا الافتراض بشدة، فالأجسام في غرف التشريح تُحقَن بسائل للحفظ، وهاتان الأذنان لا تحملان أي أثر لذلك. ثم إنهما جديدتان، وقد قُطعتا بأداة غير حادة، وهذا أمر لا يحدث إذا قام بالعمل طالبُ طب، كما أن الفورمَلين والكحول المقطر سيفرضان نفسَيهما كمادة حافظة على العقل الطبي بالطبع وليس الملح الخام.

سكت قليلاً ثم مضى قائلاً: أكرر أنه لا مزحةَ هنا، بل إننا نحقق في جريمة خطيرة.

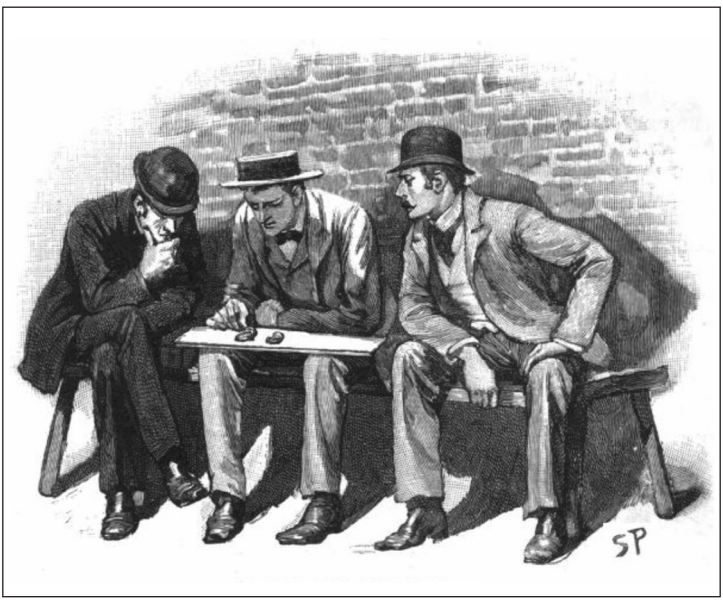

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

عندما استمعت إلى أقوال رفيقي سرَت في جسدي قُشَعْريرة غريبة، ورأيت نظرة الجِدّ الشديد التي كست ملامحه، وقد بدا هذا التمهيد القاسي وكأنه يلقي بظلال من الرعب الغريب وغير القابل للتفسير على الأحداث، أما ليستراد فقد هَزّ رأسه وكأنه لم يقتنع بعدُ تمام الاقتناع.

قال: توجَد بعض الاعتراضات على نظرية المزحة بلا شك، ولكن الحجج أقوى بكثير ضد النظرية الأخرى، فنحن نعرف أن هذه المرأة عاشت حياة هادئة محترَمة في بنغ، وهنا أيضاً خلال السنوات العشرين الماضية، ولم تكن تقضي يوماً واحداً بعيداً عن منزلها، فلماذا يرسل لها أي مجرم أدلة إدانته؟ ولا سيما وهي لا تعرف عن هذا الموضوع أكثر منا.

أجابه هولمز: هذه هي المشكلة التي علينا حلّها. أما أنا فسوف أبدأ بافتراض صحّة نظريتي، وهي أننا أمام جريمة قتل مزدوجة. فإحدى الأذنين لامرأة، فهي صغيرة دقيقة وفيها ثقب لقرط. أما الأخرى فلرجل، فهي محروقة متغير لونها بسبب التعرض للشمس، وفيها أيضاً ثقب لقرط. أفترضُ أن هذين الشخصين ميتان، وإلا لكنا سمعنا قصتهما من قبل. اليوم هو الجمعة، والطرد أُرسل صباح يوم الخميس، فالمأساة وقعت -إذن- يوم الأربعاء أو الثلاثاء أو قبل ذلك. وإذا كان هذان الشخصان قد قُتلا فمَن غيرُ قاتلهما سيبعث بهذه الإشارة على ما فعله إلى الآنسة كوشنغ؟ نستطيع أن نفترض أن الرجل الذي أرسل الطرد هو مَن نسعى وراءه، ولكن لا بد أن يملك سبباً قوياً ليبعث بهذا الطرد إلى الآنسة كوشنغ، فما هو هذا السبب؟

لإخبارها بأن الأمر وقع، أو ربما لكي يؤلمها. وفي هذه الحالة فهي تعرف مَن هو. هل تعرفه حقاً؟ أشك في ذلك. لو كانت تعرفه فلماذا تستدعي الشرطة إذن؟ كان بإمكانها دفن الأذنين دون أن يعرف بالأمر أحد. هذا ما كانت ستفعله لو أرادت إخفاء الجريمة، ولو لم ترغب في إخفاء القاتل لصرّحت باسمه. في هذه القضية تناقض علينا حلُّه.

كان يتكلم بصوت عالٍ وبكلمات سريعة وهو يحدق إلى الفراغ من فوق سياج الحديقة، ثم هَبَّ واقفاً على قدميه ومشى باتجاه البيت قائلاً: سأطرح بعض الأسئلة على الآنسة كوشنغ.

قال ليستراد: في هذه الحالة سأتركك هنا لأنني مشغول ببعض الأعمال الأخرى، ولا أعتقد أنني سأحصل من الآنسة كوشنغ على أي شيء جديد. ستجدني في مركز الشرطة.

أجاب هولمز: قد نزورك ونحن في طريقنا إلى القطار.

عدنا إلى الغرفة الأمامية حيث كانت الآنسة الهادئة ما زالت تشتغل في غطائها، فوضعَته على حِجْرها عندما دخلنا ونظرت إلينا متفحّصة بعينيها الصادقتين الزرقاوين. قالت: أنا مقتنعة -يا سيدي- بأن هذا الأمر مجرد خطأ وأن الطرد لم يكن مرسَلاً إليّ على الإطلاق، وقد قلت ذلك لضابط الشرطة عدة مرات، ولكنه سخر مني ببساطة! فأنا ليس لي أي أعداء في العالم، فلماذا يفعل معي أي أحد هذه الفعلة؟

قال هولمز وهو يجلس بجانبها: لقد بدأت أكوّن نفس

هذا الرأي يا آنسة كوشنغ، فأنا أعتقد أنه أكثر من مجرد احتمال.

ثم صمت، وفوجئت حين التفتّ إليه برؤيته وقد أخذ يحدق باهتمام شديد إلى الشكل الجانبي للسيدة، وللحظة كان بإمكاني قراءة علامات الدهشة والرضا على وجهه المتلهف! ومع ذلك فحين استدارت الآنسة كوشنغ لتعرف سبب صمته كان قد رجع رزيناً كعهده.

حدّقتُ بشدة إلى شعرها الأملس الأشيب وقبعتها المرتبة وقرطها الذهبي الصغير ووجهها الهادئ، ولكنني لم أستطع رؤية السبب في الانفعال الواضح لرفيقي.

قال هولمز: هل لي أن أسألك بعض الأسئلة؟

صاحت الآنسة كوشنغ بنفاد صبر: لقد مللت الأسئلة!

- لديك أختان كما أعتقد، أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

- عندما دخلت إلى الغرفة لاحظت على رف المدفأة مجموعة من ثلاث صور لثلاث سيدات، واحدة منها لك بلا شك، والأخريان تشبهانك بشكل كبير.

- نعم، أنت على حق؛ هاتان أختاي سارة وماري.

- وهنا صورة أخرى، وهي ملتقَطة في ليفربول لأختك الصغيرة ماري وهي بصحبة رجل يبدو من زيّه أنه بحّار،

وأستطيع أن ألاحظ أنها كانت غير متزوجة في ذلك الوقت.

- أنت سريع الملاحظة جداً!

- إنها مهنتي.

- حسناً، أنت على حق، ولكنها تزوجت السير براونَرْ بعد ذلك بعدة أيام، فقد كان يعمل على خط أمريكا الجنوبية حين التُقطت هذه الصورة، ولكنه كان مغرَماً بها جداً فلم يستطع أن يتركها لوقت طويل، فانتقل إلى العمل على السفن التي تبحر بين لندن وليفربول.

- آه، لعلها سفينة «الكونْكِرور»؟

- لا، بل «مايداي» على حسب ما سمعت آخر مرة. وقد جاء جيمس إلى هنا ليراني ذات مرة، وكان ذلك قبل أن يخرق العهد، فقد دأب بعد ذلك على معاقرة الشراب عندما يكون على البر، وكان قليل منه يحوّله إلى الجنون التام! آه، لقد كان ذلك يوماً سيئاً حين عاد إلى الشراب مرة أخرى، فقد قاطعني أولاً ثم تشاجر مع أختي الأخرى سارة. والآن وقد توقفت ماري عن إرسال الخطابات فلم أعُد أعرف عن أحوالهما أي شيء.

كان من الواضح أن هذا الموضوع يمسّ مشاعر الآنسة كوشنغ بشدة. في البداية مالت إلى الخجل كمعظم الناس الذين يعيشون حياة وحيدة، ولكنها صارت بعد ذلك شديدة الصراحة وأخبرتنا بكثير من التفصيلات عن زوج أختها البحّار.

ثم انتقلت إلى موضوع مستأجريها السابقين طلبة الطب، وأعطتنا أمثلة متعددة عن أفعالهم السيئة مع أسمائهم وأماكن عملهم. وقد أصغى هولمز لكل شيء بانتباه ملقياً عليها سؤالاً بين فينة وأخرى.

قال: إنني أتساءل عن أختك الثانية سارة. لماذا لا تعيشان معاً بما أنكما لم تتزوجا كلاكما؟

- آه، أنت لا تعرف طباع سارة وإلا لَما تعجبت من الأمر، فقد حاولتُ العيش معها عندما جئت إلى كرويدن وعشنا معاً حتى شهرين مضيا حين اضطُررنا إلى الافتراق. أنا لا أريد أن أسيء لأختي، ولكنها فضولية وصعبة الإرضاء.

- تقولين إنها تشاجرت مع أختك وزوجها في ليفربول؟

- نعم، مع أنها كانت على علاقة طيبة بهما كليهما حتى وقت قريب، بل إنها ذهبت للعيش في ليفربول لتكون بقربهما، أما الآن فهي لا تكاد تجد الكلمة المناسبة لتصف بها جيم براونر. إنها لم تتكلم طوال الأشهر الستة الماضية إلا عن شربه للخمر وعن أفعاله السيئة. لعلّه أمسك بها تتدخل فيما لا يعنيها -على ما أظن- فأسمعها رأيه فيها، وهكذا بدأ الموضوع.

قال هولمز وهو يقوم وينحني للسيدة: شكراً يا آنسة كوشنغ، لقد قلت إن أختك تعيش في نيوستريت في والنغتون على ما أتذكر. وداعاً، وأنا آسف جداً على معاناتك من جراء قضية ليست لك بها علاقة.

عندما خرجنا مرَّت عربة أجرة، فأوقفها هولمز وسأل: كم تبعد والنغتون؟

- ميلاً واحداً فقط يا سيدي.

- ممتاز، اركب يا واطسون، علينا طَرْق الحديد وهو ساخن، فرغم بساطة القضية إلا أن فيها بعض التفصيلات المهمة. فلتتوقف بنا عند مكتب البرق في طريقنا أيها السائق.

أرسل هولمز برقية قصيرة، ثم اضطجع في عربة الأجرة لبقية الطريق وقبعته مائلة على أنفه لتحجب الشمس عن وجهه.

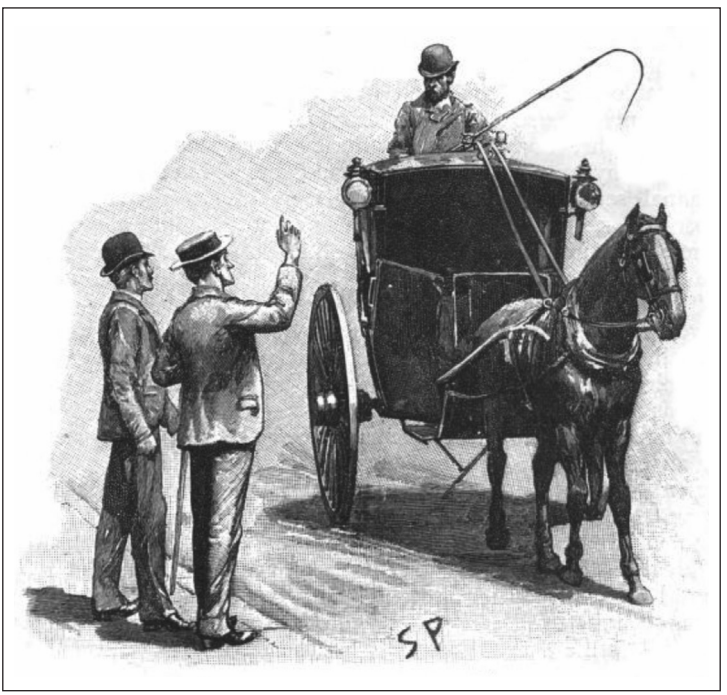

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

وأخيراً توقف سائقنا عند منزل شبيه بذلك الذي خرجنا منه للتو، وقد أمره رفيقي بالانتظار، وكان على وشك أن يدق الباب عندما فُتح فجأة وظهر على عتبته شاب رزين يرتدي ملابس سوداء وقبعة شديدة اللمعان. قال هولمز: هل الآنسة كوشنغ في المنزل؟

قال: الآنسة كوشنغ مريضة جداً، إنها تعاني منذ أمس من أعراض دماغية شديدة، وأنا -كطبيب مسؤول- لا أستطيع تحمل مسؤولية أن يقابلها أي شخص، وأنصحك بالمجيء ثانية بعد عشرة أيام.

ثم لبس قفازيه وأغلق الباب ومشى مبتعداً في الشارع، فقال هولمز بسرور: حسناً، إذا كنا لا نستطيع فليس بيدنا حيلة.

- ربما لم تكن لتخبرك بالكثير حتى لو استطاعت.

- لم أُرِدْ أن تخبرني بأي شيء؛ أردت النظر إليها فقط. على أية حال لقد حصلت على كل ما أريد. فلتأخذنا إلى فندق جيد أيها السائق حيث نستطيع تناول الغداء، وبعد ذلك سنذهب إلى صديقنا ليستراد في مركز الشرطة.

* * *

حظينا بوجبة ممتعة، ولم يتكلم هولمز خلالها إلا عن كَمَانه الذي يساوي الآن خمسمئة جنيه على الأقل والذي اشتراه من سمسار في توتنهام كورت بخمسة وخمسين شلناً!

هذا الموضوع قاده إلى العازف الشهير باغانيني، فجلسنا ساعةً وهولمز يخبرني بحكاية بعد أخرى من نوادر هذا الرجل الاستثنائي.

وصلنا لمركز الشرطة بعد الظهر بمدة طويلة وقد خَفَّ الوهج ليصبح شعاعاً لطيفاً، وكان ليستراد ينتظرنا عند الباب. قال: تنتظرك برقية يا سيد هولمز.

- حقاً؟ إنه الرد.

فتحها بسرعة ومرَّ بعينه على ما فيها، ثم حشرها في جيبه وقال: هذا جيد.

- هل اكتشفت شيئاً؟

- لقد اكتشفت كل شيء.

حدق ليستراد إليه بذهول وقال: ماذا؟! إنك تمزح.

- لم أكن أكثر جِدّاً في حياتي؛ لقد ارتُكبت جريمة مروِّعة، وأعتقد أنني اكتشفت كل تفصيلاتها.

- والمجرم؟

كتب هولمز بضع كلمات على ظهر بطاقة من بطاقاته ثم قدّمها إلى ليستراد قائلاً: هذا اسمه، ولكنك لن تستطيع القبض عليه قبل مساء الغد على الأقل. وأفضّل أن لا تذكر اسمي فيما يخص هذه القضية على الإطلاق، فأنا أحب أن يرتبط اسمي فقط بالقضايا التي تتميز ببعض الصعوبة في حلها. هيا بنا يا واطسون.

ثم مشينا معاً باتجاه المحطة تاركَين ليستراد وهو ما زال يحدق بوجه سعيد إلى البطاقة التي قدمها هولمز إليه.

* * *

قال هولمز فيما كنا نشرب الشاي ونثرثر في مسكننا في شارع بيكر تلك الليلة: هذه القضية واحدة من القضايا التي تجبرنا على التحليل العكسي، حيث نبدأ بالنتيجة لنصل إلى الأسباب، تماماً كما حدث في تلك التحقيقات السابقة التي سجّلتَ أحداثها باسم «علامة الأربعة». لقد كتبت إلى ليستراد أطلب منه أن يبعث إلينا بالتفصيلات التي نحتاجها الآن والتي لن يحصل عليها إلا بعد القبض على هذا الرجل، وأنا أثق أنه سيفعل، فرغم أنه مجرد من المنطق تماماً فهو عنيد ككلب الصيد عندما يعرف ما يجب عليه أن يفعله، وهذا الإصرار هو ما جعله على رأس محقّقي سكتلنديارد.

سألت قائلاً: قضيتك ليست كاملة إذن؟

- إنها مكتملة في الأمور الأساسية، فنحن نعرف مَن قام بهذا العمل المقزز، مع أننا لم نعرف بعد واحداً من الضحيتين. لقد كونتَ استنتاجاتك بالطبع؟

- أفترضُ أن جيم براونر هو مَن تشك فيه؟

- بل أكثر من الشك.

- ومع ذلك فأنا لا أستطيع فهم أي شيء فيما عدا بعض الإشارات المبهَمة.

- أنا على العكس منك، فالأمور واضحة تماماً في ذهني. سأراجع معك الخطوات المبدئية، فقد باشرنا العمل في هذه القضية بعقل خالٍ تماماً كما أتذكر، وهذا دائماً ما يكون ميزة، فنحن لم نكوّن أي نظرية مسبقة؛ كنا فقط هناك لكي نلاحظ ونستخلص الدلالات من ملاحظاتنا، فما هو أول شيء رأيناه؟ سيدة هادئة محترَمة بدت بلا أسرار، وصورة كشفت لي أن لها أختين أصغر منها... عندئذ ومضت في ذهني فكرة أن الصندوق ربما كان القصد به واحدة منهما. وضعت الفكرة جانباً لندحضها أو نؤكدها في وقت فراغنا، وبعدها ذهبنا إلى الغرفة الخارجية في الحديقة -كما أتذكر- ورأينا المحتويات الفريدة في الصندوق الأصفر الصغير.

كان الحبل من ذلك النوع الذي يستخدمه البحارة على السفن، وعلى الفور أحسست أن للبحر علاقة بتحقيقنا، وعندها لاحظت أن العقدة من العقد الشائعة عند البحارة وأن الطرد أُرسل من ميناء وأن الأذن الرجالية قد ثُقبت لوضع قرط، وهذا أيضاً أكثر شيوعاً بين البحّارة منه بين رجال البر، وبذلك تأكدت أننا سنجد كل المشاركين في مأساتنا بين أناس لهم صلة بالبحر.

عندما فحصت العنوان على الطرد لاحظت أنه كان موجهاً إلى الآنسة «س. كوشنغ»، ويمكن بالطبع أن تكون هي الأخت الكبرى حيث إن الحرف الأول لاسمها هو «س»، ولكن الحالة نفسها تنطبق على واحدة من الأختين الأخريين، سارة، وفي تلك الحالة يجب أن نبني تحقيقنا على أساس

جديد تماماً. رجعت إلى منزل الآنسة كوشنغ وفي نيتي توضيح هذه النقطة، وكنت على وشك التأكيد بأنني مقتنع بأن خطأ ما قد ارتُكب، ولعلك تذكر أنني توقفت فجأة، والحقيقة أنني رأيت شيئاً أدهشني كثيراً، وفي الوقت ذاته ضيّق مجال بحثنا كثيراً.

أنت طبيب يا واطسون، ولذلك فأنت تدرك أن الأذن الإنسانية هي أكثر أجزاء الجسم اختلافاً، فأذن كل منا تتميز تماماً وتختلف عن آذان الآخرين، هذه قاعدة، وسوف تجد في عدد السنة الماضية من مجلة «علوم الإنسان» دراستين قصيرتين بقلمي عن هذا الموضوع. وهكذا فقد فحصت الأذنين في الصندوق بعين خبير ولاحظت بعناية خواصهما التشريحية، وتصورْ دهشتي حين نظرت إلى الآنسة كوشنغ ولاحظت أن أذنها تتوافق تماماً مع الأذن الأنثوية التي عاينتها للتو!

كان الأمر بعيداً تماماً عن المصادفة، فلها نفس الأذن الصغيرة ونفس الالتواء للغضروف الداخلي. لقد كانت هي نفس الأذن في كل العناصر الأساسية. وبالطبع عرفت الأهمية الكبيرة لتلك الملاحظة، فقد كان من الواضح أن الضحية كانت على قرابة دم بها، ومن المحتمَل أنها من قريباتها المقربات، فبدأت أتحدث معها عن عائلتها، وكما تذكر فقد أعطتنا تفصيلات في غاية الأهمية.

ففي المقام الأول كان اسم شقيقتها الأول هو سارة

وعنوانها كان العنوان نفسه حتى وقت قريب، لذلك بات من الواضح كيف حدث الخطأ وإلى مَن كان الطرد مُرسَلاً. ثم سمعنا عن هذا الرجل المتزوج بالأخت الثالثة، وعرفنا أنه في وقت ما كان على صلة عميقة بالآنسة سارة، حتى إنها ذهبت بالفعل إلى ليفربول لتكون قريبة من الزوجين، وإن كان نزاعٌ ما قد فرّق بينهم. هذا النزاع تسبب في توقف كل الاتصالات لعدة شهور، فلو كان عند براوْنَر سبب لإرسال الطرد إلى الآنسة سارة فسوف يرسله إلى عنوانها القديم بالتأكيد.

والآن تبدو المسألة واضحة بشكل رائع، فقد عرفنا بأمر هذا البحّار، وهو رجل مندفع ذو انفعالات قوية، وكما تتذكر فقد ترك عمله الذي لا بد أنه كان رفيع المستوى ليكون قريباً من زوجته، كما أنه معرض لنوبات عرَضية من تأثير الإفراط في الشراب. وعندنا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن زوجته قد قُتلت، وأن رجلاً آخر يُحتمَل أن يكون بحّاراً قد قُتل هو الآخر في الوقت نفسه. وبالطبع تفرض الغيرة نفسها كدافع للجريمة، فلماذا تُرسَل أدلة هذا الفعل إلى الآنسة سارة؟ لأن من المحتمَل أنها كانت لها يد في تصعيد الأحداث التي أدت إلى تلك المأساة حينما كانت مقيمة في ليفربول. وسوف تلاحظ أن سفن هذا الخط البحري ترسو في بلفاست ودبلن وواترفورد، وبافتراض أن براونر ارتكب الجريمة ثم أبحر في سفينته «مايداي» فإن بلفاست هي الميناء الأول الذي يمكن أن يرسل منه هذا الطرد الرهيب.

في هذه المرحلة من مراحل القضية بدا حل آخر ممكناً.

وبالرغم من أنه بدا بعيد الاحتمال بشكل كبير فقد كنت مصرّاً على التوثق منه قبل المضيّ قدماً في البحث. إن عاشقاً فاشلاً

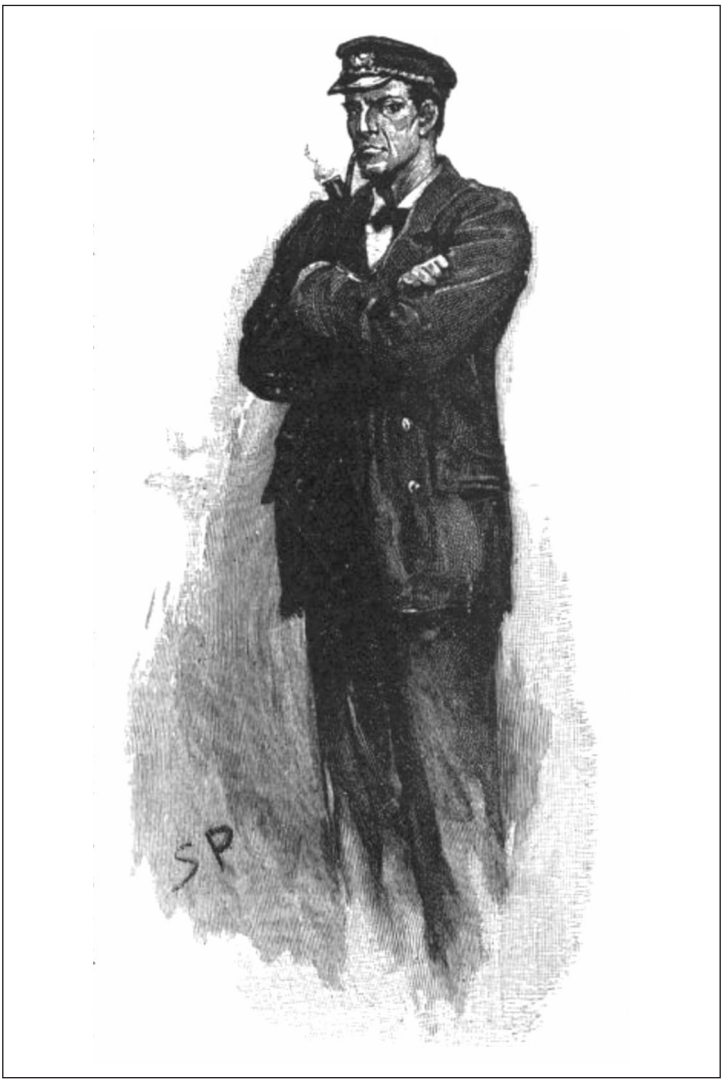

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

يمكن أن يقتل السيد والسيدة براونر، وفي هذه الحالة تكون الأذن الأخرى للزوج. وعلى الرغم من أنه كان على هذه النظرية الكثير من الاعتراضات الخطيرة إلا أنها كانت معقولة، فأرسلت برقية لصديقي ألغر الذي يعمل في شرطة ليفربول وطلبت منه اكتشاف ما إذا كانت السيدة براونر في المنزل وما إذا كان السيد براونر قد أبحر في السفينة مايداي، وبعد ذلك ذهبنا إلى والنغتون لزيارة الآنسة سارة.

أردت معرفة مدى تشابه أذنها مع الشكل المميز لآذان العائلة، وكان يمكنها بالطبع تزويدنا بمعلومات مهمة جداً، وإن لم أكن واثقاً أنها كانت ستفعل ذلك، فلا بد أنها سمعت بالأمر في اليوم السابق لأن كرويدن كلها تضجّ به. وهي الوحيدة التي كان بإمكانها معرفة الشخص الذي أُرسل هذا الطرد إليه في الأصل، فلو أرادت مساعدة العدالة لاتصلت بالشرطة. مهما يكن من أمرها كان علينا رؤيتها، فذهبنا إلى بيتها ووجدنا أن خبر وصول الطرد قد أثر فيها لدرجة أنه تسبب في إصابتها بحمى الدماغ، لأن مرضها وافق نفس التاريخ. وبذلك صار الأمر واضحاً أكثر من أي وقت مضى، حيث أدركنا أنها فهمت الدلالة الكاملة للطرد، وعرفنا -في الوقت نفسه- أن علينا الانتظار لبعض الوقت قبل الحصول على أي مساعدة منها.

على أية حال كنا في غنى عن مساعدتها، فالإجابات كانت بانتظارنا في مركز الشرطة حيث طلبت من ألغر أن يرسلها، ولم يكن أي شيء أكثرَ حسماً منها.

لقد كان منزل السيدة براونر مغلَقاً منذ أكثر من ثلاثة أيام، وكان رأي الجيران أنها سافرت جنوباً لزيارة أختيها، وقد تم التحقق من مكاتب الشحن وتأكد أن براونر غادر على متن السفينة مايداي. وبحساب بسيط قدرت أن السفينة ستصل إلى ميناء التيمز مساء الغد، ولدى وصولها وبراونر على متنها سيجد في استقباله ليستراد البليد الصارم، ولا شك أننا سنحظى بالتفصيلات كلها عندئذ.

* * *

لم تَخِبْ توقعات شيرلوك هولمز، فبعد يومين تسلم ظرفاً يحتوي على رسالة قصيرة ووثيقة مطبوعة ضمت عدة ورقات كبيرة. قال هولمز: لقد نال منه ليستراد، وقد يهمك أن تسمع ما يقول:

عزيزي السيد هولمز،

لقد ذهبتُ تنفيذاً للخطة التي وضعناها من أجل اختبار نظريتنا...

قال هولمز ضاحكاً: صيغة الجمع هنا لطيفة يا واطسون، أليس كذلك؟ ثم أكمل الرسالة:

... إلى رصيف ألبرت أمس في السادسة مساء، وصعدت إلى السفينة البخارية مايداي المملوكة لشركة ليفربول ودبلن ولندن التجارية للشحن. وبالتحقيق وجدت أن فيها بحّاراً يعمل مضيفاً باسم جيمس براونر، وكانت تصرفاته في أثناء الرحلة غيرَ عادية

مما أجبر قائد السفينة على إعفائه من واجباته. وحين دخلت إلى قمرته وجدته جالساً على أحد الصناديق ورأسه غارق بين يديه، وقد أخذ يهز نفسه بقوة. كان شاباً قوياً ضخماً حليق الوجه أسمر اللون جداً لدرجة أنه يشبه ألدريغ، ذلك الذي ساعدنا في حل قضية الغسيل المزيف. وقد وثب واقفاً حين عرف وظيفتي، حتى إنني وضعت صفارتي على شفتَي لأنادي اثنين من رجال الشرطة النهرية كانا يقفان خارجاً، ولكنه بدا بلا روح، واكتفى بمَدّ يديه بمنتهى الهدوء لنضع فيهما الأغلال، وقد نقلناه معنا إلى السجن.

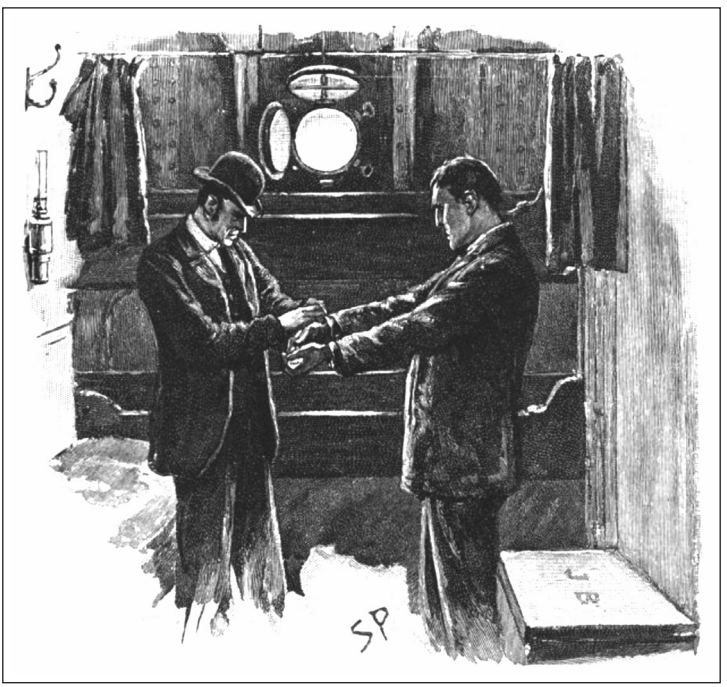

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

أما الصندوق فقد اعتقدنا أننا سنجد فيه شيئاً يجرّمه، ولكننا لم نجد شيئاً ما عدا سكيناً حاداً كبيراً كالذي يحمله معظم البحارة. على أي حال فقد وجدنا أننا لن نحتاج إلى أدلة دامغة، فحين أحضرناه طلب الإذن للإدلاء بالشهادة، وبالطبع فقد كتب موظف الاختزال عندنا شهادته، وقد طبعنا منها ثلاث نسخ أرفقت لك واحدة منها. لقد اتضح أن هذه القضية بسيطة جداً كما اعتقدتَ، ومع ذلك فأنا أجد نفسي ممتناً لأنك ساعدتني في هذا التحقيق.

مع أطيب التمنيات،

المخلص: ليستراد

علق هولمز قائلاً: لقد كان تحقيقاً بسيطاً جداً بالفعل، ولكن لا أظنه عرف ذلك حين استدعانا في بداية الأمر. على أية حال لنرَ كيف دافع جيم براونر عن نفسه. هذه هي شهادته التي أدلى بها أمام المحقق مونتغمري في مركز شرطة شادْويل، وهي شهادة حرفية:

هل لديّ أي شيء أقوله؟ نعم، لدي الكثير. يجب أن أعترف بكل شيء، ويمكنكم أن تشنقوني أو تتركوني وحدي، فأنا لا أهتم إطلاقاً، لأنه لم يغمض لي جفن منذ فعلت ذلك ولا أظن أنني سأنام بعده هانئاً حتى أموت. أحياناً أرى وجهه، ولكن في أغلب الأحيان أرى وجهها. لا يمرّ علي وقت دون أن يكون واحد منهما أو الآخر ماثلاً أمامي. هو يبدو عابساً مسوَدّاً، أما هي

فعلامات الدهشة وعدم التصديق مرتسمة على وجهها. آه، هذه المخلوقة الوديعة، من الطبيعي أن تكون مدهوشة عندما ترى الموت على وجه لم ينظر إليها بأي شيء سوى الحب إلا نادراً.

ولكنها غلطة سارة، ولعل لعنة رجل محطم تقع عليها وتجعل دماءها تتعفن في عروقها! لا أقول ذلك لأنني أريد تبرئة نفسي، فأنا أعرف أنني لو عدت إلى الشراب من جديد لأصبحت كالوحش الذي كنتُه من قبل، ولكنها كانت ستسامحني وكانت ستبقى بقربي إلى الأبد لولا أن تلك المرأة ألقت بظلالها الكئيبة على منزلنا. لقد أحبتني سارة، وذلك هو أساس الموضوع؛ أحبتني حتى تحول حبها إلى كراهية مسمومة عندما عرفت أنني أهتم بآثار أقدام زوجتي في الطين أكثر مما أهتم بها وبروحها وبكل ما فيها!

كُنّ ثلاث شقيقات؛ الكبرى كانت امرأة جيدة، أما الثانية فكانت شيطاناً! وكانت الثالثة هي الملاك. كانت سارة في الثالثة والثلاثين وماري في التاسعة والعشرين عندما تزوجنا أنا وماري، وكنا سعيدَين يوم أسسنا معاً منزلنا المشترك. لم تكن في كل ليفربول امرأة أحسن من ماري زوجتي، وعندما دعونا سارة لقضاء أسبوع امتد ليصبح شهراً، ثم تدرج الأمر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت سارة واحدة منا.

كنت آنذاك في فترة التعافي من الشرب وكنا ندخر

المال، وبدا كل شيء براقاً. يا إلهي! مَن كان يظن أن تصل الأمور إلى ذلك الحد؟ من كان يحلم بهذا؟

تعودت غالباً أن أعود إلى المنزل في نهاية الأسبوع، وفي بعض الأحيان حين تتأخر السفينة لحمولة ما كنت أقضي الأسبوع كله متصلاً في بيتي، وبهذه الطريقة رأيت شقيقة زوجتي سارة كثيراً. إنها امرأة طويلة سمراء سريعة عنيفة، ولها طريقة ترفع فيها رأسها بفخر ولها لمعة في عينيها كشرارة من نار، ولكن عندما كانت ماري هناك لم أفكر فيها قط، أقسم على ذلك، كما أتمنى أن يرحمني الله.

لقد بدا لي أحياناً أنها تريد البقاء وحيدة معي أو ربما كانت تستدرجني لأخرج في نزهة معها، ولكنني لم أفكر قط في ذلك الأمر حتى جاء ذلك المساء الذي تفتحت فيه عيناي. كنت قد رجعت لتوّي من رحلة في السفينة ووجدت زوجتي في الخارج، ولكن سارة كانت في المنزل. سألتها: أين ماري؟ فقالت: لقد خرجت لتدفع بعض الحسابات.

كنت قليل الصبر أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، فقالت: ألا تستطيع البقاء سعيداً لمدة خمس دقائق دون ماري يا جيم؟ إن في ذلك إساءة لي، فأنت لا تستطيع أن تكون راضياً برفقتي ولو لمدة قصيرة من الزمن.

نظرتُ إلى عينيها وقرأت كل شيء؛ لم تكن بحاجة إلى

الكلام، ولا أنا أيضاً، فقد وقفت إلى جانبي في صمت للحظة، ثم رفعت يدها وربتت على كتفي قائلة: جيم الملتزم القديم الطراز! وبضحكة ساخرة خرجَت جرياً من الغرفة.

حسناً، منذ تلك اللحظة كرهتني سارة من كل قلبها وروحها. وهي امرأة قادرة حقاً على الكراهية، وكم كنت

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

أحمق لأنني تركتها تستمر بالسكن معنا!

لم أقُل شيئاً لماري لأنني كنت أعرف أن ذلك سيحزنها. وجرَت الأمور بعد ذلك كالعادة، ولكنني بدأت أجد بعد فترة بعض التغيّر في ماري نفسها، فقد كانت تثق بي على الدوام، ولكنها صارت منذ ذلك الوقت مهووسة وشكاكة وتريد معرفة أين كنت وماذا كنت أفعل وممن كانت خطاباتي وما الذي أحمله في جيوبي... والكثير من هذه الحماقات الصغيرة. ويوماً بعد يوم ازدادت ماري قلقاً وهوساً، وغرقنا في سلسلة من المشاحنات دون أي سبب!

حيّرني كل ما يحدث، وبينما تجنبتني سارة في ذلك الوقت أصبحَت هي وماري لا تفترقان، وأستطيع الآن رؤية كيف كانت سارة تتآمر وتخطط وتسمم أفكار زوجتي ضدي. ولكنني كنت أعمى فلم أفهم ذلك في حينه، وخرقت العهد وبدأت بالشرب ثانية، ولكني أعتقد أنني لم أكن لأفعل ذلك لو بقيت ماري على طبعها القديم. وعندئذ صار لديها سبب لتغدو مشمئزة مني، واتسعت الهوة بيننا أكثر فأكثر، وفي ذلك الوقت تدخّل أليك فيربارين فازدادت الأمور سوءاً ألف مرة.

لقد جاء لرؤية سارة في أول الأمر، ولكنه سرعان ما صار صديقاً لنا جميعاً. كان ذا أسلوب ناجح وكان باستطاعته تكوين صداقات أينما ذهب، فقد كان جريئاً وأنيقاً، لكنه

كان ذكياً وملتوياً أيضاً، وقد رأى نصف العالم ويستطيع وصف ما رآه. لقد كانت صحبته مسلّية، لن أنكر ذلك، كما كانت عاداته لطيفة ومهذبة بالنسبة لبحّار.

ظلّ يتردد على منزلي لمدة شهر كامل، ولم يخطر ببالي لحظة واحدة أن أي مكروه سيحدث بسبب طُرقه الناعمة الملتوية. وأخيراً حدث ما جعلني أشك فيه، ومنذ ذلك اليوم فقدت راحتي إلى الأبد. كان مجرد حادث بسيط، فقد دخلت إلى صالة الاستقبال على غير توقع، وبينما أنا بالباب رأيت وجه زوجتي يضيء مرحّباً، وما إن رأتني حتى خبا ضياء وجهها واستدارت مبتعدة بنظرة فيها الكثير من خيبة الأمل! لقد كان هذا كافياً، إذ لم يكن ممكناً أن تخطئ في سماع خطواتي وتعتقدني شخصاً آخر إلا أليك فيربارين، ولو رأيتُه وقتها لقتلته لأنني أصبح مجنوناً حين أفقد أعصابي.

رأت ماري الغضب على وجهي فجرَت إلى الأمام ويداها على أكمامي وقالت: لا تفعل يا جيم، لا تفعل.

سألتها: أين سارة؟

قالت: في المطبخ.

قلت وأنا متجه إليها: سارة، لا أريد هذا الرجل فيربارين أن يدنس بيتي ثانية.

فقالت: لماذا؟

قلت: لأنني أمرت بذلك.

قالت: إذا لم يكن أصدقائي مناسبين لهذا المنزل فأنا مثلهم.

قلت: افعلي ما تريدين، ولكن إذا رأيت وجه فيربارين في هذا المنزل ثانية فسأبعث لك بواحدة من أذنيه كتذكار.

وقد خافت من وجهي على ما أعتقد، لأنها لم تنطق بكلمة وغادرت منزلي في ذلك المساء.

حسناً، أنا لا أعرف الآن ما إذا كان ذلك مجرد شرّ خالص من جانب تلك المرأة أم أنها اعتقدت أن بإمكانها إبعادي عن زوجتي بتشجيعها على التصرف الخاطئ. استأجرت منزلاً يبعد شارعَين عن منزلنا وأجّرَت غُرَفاً للبحارة، واعتاد فيربارين الإقامة هناك، وكانت ماري تذهب لبيت سارة لتشرب الشاي معه ومع أختها. لا أستطيع أن أعرف كم مرة ذهبت هناك، ولكني تبعتها في أحد الأيام، وعندما اقتحمت الباب هرب فيربارين من فوق سور الحديقة الخلفية كالجبان الحقير. وقد أقسمت لزوجتي أنني سأقتلها إذا وجدتها بصحبته مرة أخرى، وأخذتها معي وهي تبكي وترتعش ووجهها شاحب كورقة بيضاء، فلم يعُد للحب أثر بيننا. واستطعت رؤية أنها تكرهني وتخافني، وعندما حملني التفكير في ذلك على الشراب أصبحَت تحتقرني أيضاً.

اكتشفَت سارة أنها لن تستطيع أن توفر معيشتها في ليفربول فعادت لتعيش مع أختها في كرويدن كما فهمت، ومضت الأمور كالعادة حتى جاء الأسبوع الماضي وجاء معه كل البؤس والدمار.

كان الأمر على هذا الحال حين ذهبنا في جولة بحرية على متن «مايداي» لمدة سبعة أيام، ولكن أحد البراميل تحرر وخلع إحدى الصفائح المغلفة لجسم السفينة، فاضطُررنا أن نرجع إلى الميناء لمدة اثنتي عشرة ساعة، فتركت السفينة وعدت إلى المنزل وأنا أفكر في أنها ستكون مفاجأة لزوجتي. وكان الأمل يحدوني بأنها ستكون سعيدة لرؤيتي بهذه السرعة، كانت تلك الفكرة في رأسي حين انعطفت لأدخل شارعي، وفي تلك اللحظة مرت عربة أجرة بجواري، وكانت ماري جالسة فيها بجوار فيربارين وهما يثرثران ويضحكان دون أن ينتبها إلى وجودي! فوقفت أراقبهما من بعيد.

أقول وأؤكد لك أنني فقدت السيطرة على نفسي منذ تلك اللحظة، وحين أنظر إلى الوراء أرى كل شيء كحلم مبهَم، فقد كنت أشرب كثيراً حتى وقت متأخر، وكان الأمران معاً قد جعلاني أفقد عقلي بشكل تام. في رأسي شيء ينبض الآن كمطرقة في يد عامل على سطح مركب، أما في ذلك الصباح فقد بدا وكأن كل شلالات نياغارا تزأر وتطنّ في أذنَي!

اندفعت أجري وراء عربة الأجرة، وكنت أحمل عصا من خشب البلوط في يدي، وقد تأخرت قليلاً لأراقبهما دون أن يشاهداني. توقفا عند محطة القطار، وكان أمام مكتب التذاكر حشد كبير فاقتربت منهما دون أن يلاحظاني. اشتريا تذكرتين إلى نيوبرايْتون، وكذلك أنا، ولكني جلست بعدهما بثلاث عربات. وعندما وصلنا مشيا في الصف، وكنت دائماً خلفهما بما لا يزيد عن مئة متر، وأخيراً رأيتهما يستأجران قارباً ويشرعان في التجديف، فقد كان الجو شديد الحرارة ولا بد أنهما

رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

اعتقدا أن المياه ستكون ألطف. وكان الأمر كما لو أن أحداً وضعهما بين يدَي، فقد انتشر الضباب ولم تكن لترى لأكثر من بضع عشرات من الأمتار، فاستأجرت قارباً وانطلقت خلفهما، وكنت أستطيع رؤية قاربهما، ولكن لأنهما كانا يجدفان بنفس سرعتي تقريباً فلا بد أنهما كانا على بعد ميل من البر قبل أن ألحق بهما، وقد كان الضباب يلفنا كالستارة ونحن الثلاثة في وسطه.

يا إلهي! هل سأنسى أبداً وجهَيهما عندما عرفا مَن كان في القارب الذي اقترب منهما؟ لقد صرخَت هي وأخذ هو يسبّ كرجل مجنون وقفز عليّ بالمجداف. لا بد أنه رأى الموت في عينَي، فتفاديته وضربته بعصاي

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

فحطمت رأسه كالبيضة. وبالرغم من كل جنوني فربما كنت سأبقي عليها لولا أنها ألقت بذراعيها عليه وهتفت باكية: أليك...

فضربت ثانية، فرقدت ممددة بجواره!

كنت وقتَها كوحش هائج مستثار، ولو كانت سارة هناك للحقَت بهما. ثم سحبتُ سكيني و... حسناً، هاكم! لقد قلت ما يكفي، وقد شعرت بسعادة همجية حين فكرت كيف كانت سارة ستشعر حين تصلها مثل هذه الإشارات كدليل على ما سبّبه تدخلها.

وقفت حتى غرقا، وكنت أعرف أن مالك القارب سيظن أنهما فقدا طريقهما في الضباب وانجرفا إلى عمق البحر، فنظفت نفسي ورجعت إلى البرّ فلحقت بسفينتي دون أن يشكّ أحدٌ بما حدث، وفي تلك الليلة أعددت الطرد لسارة وأرسلته من بلفاست في اليوم التالي.

ها قد عرفتم حقيقة الأمر، فيمكنكم شنقي أو فلتفعلوا بي ما تريدون، ولكنكم لن تعاقبوني كما عوقبتُ بالفعل، فأنا لا أستطيع إغلاق عينَي دون رؤية وجهَيهما يحدّقان إليّ كما فعلا حين اخترق قاربي الضباب. لقد قتلتهما بسرعة، ولكنهما الآن يقتلانني ببطء، ولو قضيت ليلة أخرى بهذه الطريقة فسوف أُجَن أو أموت قبل الصباح.

إنك لن تضعني في الزنزانة وحدي يا سيدي، أليس كذلك؟ رحمةً بي لا تفعل.

قال هولمز بكآبة وهو ينحّي الورق جانباً: ما معنى هذا يا واطسون؟ ما الهدف من دائرة البؤس والعنف والخوف؟ يجب أن ينتهي هذا إلى خاتمة ما، ولكن أي خاتمة؟ هذه هي المشكلة الكبرى الخالدة التي لم يستطع العقل الإنساني الاهتداء إلى إجابتها منذ الأزل.

* * *

مذكرات شيرلوك هولمز
(٣)

لُغز الوجه الأصفر

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية
في عدد شباط (فبراير) ١٨٩٣

عندما أنشر قصص القضايا التي حققها صديقي شيرلوك هولمز فإن من الطبيعي أن أهتم بسرد نجاحاته أكثر من إخفاقاته. والسبب في ذلك ليس الحفاظ على سمعته، فمهاراته وقدراته الاستثنائية معروفة للجميع، ولكن لأن أحداً ما كان لينجح فيما فشل هو فيه، وهكذا كانت تلك القضايا ستبقى بلا نتيجة حاسمة إلى الأبد. وعلى أي حال فقد تصادف بين وقت وآخر أن ظهرت الحقيقة حتى حينما أخطأ صديقي، وقد دوّنت بعضاً من هذا النوع من القضايا، ومنها هذه التي أهمّ بسردها الآن.

كان شيرلوك هولمز نادراً ما يمارس الرياضة لمجرد الرياضة. ومع أنه كان واحداً من أفضل الملاكمين الذين عرفتهم ومن القلائل القادرين على احتمال المجهود العضلي الكبير إلا أنه كان ينظر إلى العمل الجسماني غير الهادف كهَدْر للطاقة، ونادراً ما أجهدَ نفسه إلا إذا كان ذلك في سبيل خدمة العمل، وعندها لم يكن ليتعب أبداً أو يكلّ. لقد كان من المذهل حقاً أن يحافظ على لياقته في تلك الظروف، وربما أمكنه صنع ذلك بفضل نظامه الغذائي وعاداته البسيطة إلى حد التقشف.

في يوم من أيام الربيع الأولى كان شيرلوك هولمز يشعر باسترخاء لدرجة أنه طلب مني الذهاب في نزهة إلى الحديقة،

حيث كانت البراعم الخضراء المبكرة تزيّن الأشجار والرؤوس اللزجة المدبّبة لحبات الكستناء قد بدأت تبرز من بين أوراقها. وقد تجولنا معاً لمدة ساعتين. وكشخصين عاشا معاً لوقت طويل فقد قضينا معظم الوقت في صمت، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة عندما عدنا إلى شارع بيكر مرة أخرى.

قال صبيّ البيت حين فتح لنا الباب: لقد جاء سيّد وسأل عنك.

رمقني هولمز بنظرة مؤنّبة قائلاً: كل هذا بسبب نزهة بعد الظهر! هل رحل هذا السيد إذن؟

- نعم يا سيدي.

- ألم تطلب منه الدخول؟

- بلى يا سيدي، لقد دخل.

- كم من الوقت انتظر؟

- نصف ساعة يا سيدي. وقد كان بادي القلق، فقد أخذ يسير ويدقّ بقدميه طَوال الوقت الذي قضاه هنا، ومع أنني كنت خارج الغرفة فقد استطعت سماعه. وعندما خرج أخيراً إلى الممر صاح قائلاً: ألن يحضر هذا الرجل أبداً؟ كانت تلك كلماته يا سيدي، فقلت له: يلزمك أن تنتظر قليلاً. فقال: سأنتظر في الهواء الطلق إذن، فأنا أشعر هنا أنني على وشك الاختناق. سأعود بعد وقت قليل. ثم خرج، ولم تفلح محاولاتي في منعه من الذهاب.

- حسناً، لقد بذلت كل ما تستطيع.

* * *

فيما كنا نتجه إلى غرفنا قال هولمز: إن هذا مزعج جداً يا واطسون، فقد كنت بحاجة ملحّة إلى قضية، وهذه تبدو -حسبما يظهر من قلق الرجل- كما لو كانت على قدر من الأهمية. يا للعجب! إن هذا الذي على الطاولة ليس غليونك يا واطسون؛ لا بد أن زائرنا تركه وراءه. إنه غليون خشبي قديم جميل مصنوع من الكهرمان كما يسمّيه بائعو التبغ. وإني لأتساءل: كم عدد القطع الكهرمانية الأصلية الموجودة في لندن؟ بعض الناس يقولون إن وجود صورة ذبابة على الغليون دليلٌ على الأصالة. حسناً، لا بد أن هذا الرجل كان منزعجاً جداً ليترك وراءه هذا الغليون الذي يحبّه كثيراً على ما يبدو.

سألته قائلاً: كيف عرفت أنه يحبه؟

- حسناً، إنني أقدّر الثمن الأصلي لهذا الغليون بستة شلنات أو سبعة، وكما ترى فقد أُصلح مرتين، مرة في الجزء الخشبي ومرة في الساق، وكلاهما باستخدام حلقة فضية كما تلاحظ، وربما تساوي أكثر ممّا يساويه الغليون نفسه في الأصل، فلا بدّ -إذن- أن هذا الرجل يقدّر الغليون ويحبه جداً حيث إنه يفضّل أن يصلحه على أن يشتري غيره بالكلفة ذاتها.

ولأن هولمز أخذ يقلّب الغليون في يده ويتفحصه بطريقته المتأملة الخاصة فقد قلت: هل هناك أي شيء آخر؟

رفع هولمز الغليون إلى الأعلى وطرق عليه بإصبع سبابته الطويل النحيل كأستاذ يلقي محاضرة عن عَظْمة وقال: من حين لآخر تكون الغلايين ذات منفعة كبيرة، فلا شيء أكثر تفرّداً منها، ربما ما عدا الساعات وأربطة الأحذية. الدلائل هنا ظاهرة، فمن الواضح أن مالك الغليون رجل قوي أعسر ذو أسنان ممتازة، وهو مهمل في عاداته وليس بحاجة إلى توفير المال.

ألقى صديقي المعلومات باستخفاف، ولاحظت أنه ثبّت عينيه عليّ لرؤية ما إذا كنت قد تتبعت تحليله. قلت: أتظن أن الرجل لا بد أن يكون ثرياً إذا كان يدخن غليوناً بسبعة شلنات؟

أجاب هولمز وهو يفرّغ القليل من الدخان في راحة يده:

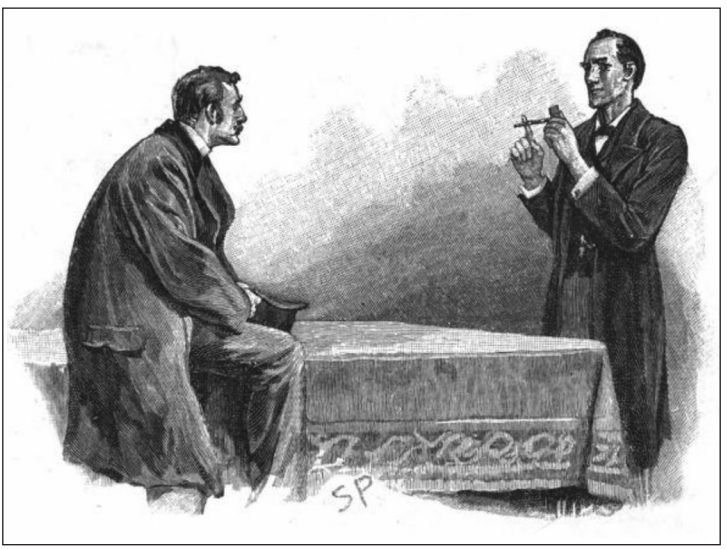

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

هذا خليط غروسفينور وثمنه ثمانية بنسات للأونصة، وقد كان قادراً على شراء دخان ممتاز بنصف الثمن. إنه ليس بحاجة إلى التوفير.

- وماذا عن باقي النقاط؟

- من عاداته أن يشعل الغليون على المصابيح والمواقد الغازية، فأنت تستطيع أن ترى أن الغليون متفحم تماماً في أحد الجوانب، وبالطبع فالكبريت لن يفعل ذلك، لماذا يمسك أحد بعود كبريت على جانب غليونه؟ لأنه لا يستطيع إشعاله بالمصباح دون حرق الجانب. ولأن كل آثار الحرق على الناحية اليمنى فقد استنتجت أنه أعسر، فلو أمسكت بغليونك على المصباح سترى أن الطبيعي -وأنت تستعمل يدك اليمنى- أن تعرّض الجانب الأيسر من الغليون للشعلة، وإذا صنعت ذلك لمرة واحدة على الناحية الأخرى فلن يتكرر الأمر دائماً، أما هذا الغليون فقد حُمل دائماً بهذا الشكل. كما أنه ترك علامة من أسنانه على الكهرمان، وهذا لا يحدث إلا إذا كان قوياً ويملك أسناناً جيدة. آه، إذا لم أكن مخطئاً فإنني أسمعه الآن على الدرج، وسنحظى بشيء أكثر أهمية من هذا الغليون لندرسه.

* * *

بعد لحظة فُتح الباب ودخل الغرفةَ شاب طويل يرتدي بأناقة غير متكلّفة بدلة ذات لون رمادي داكن و في يده ساعة كبيرة بنّية اللون، وقد قدرت أنه في الثلاثين من عمره، في

حين كان في حقيقته أكبر من ذلك ببضع سنوات.

قال ببعض الحرج: أستمحيكم عذراً، أظن أنه كان عليّ أن أقرع الباب. نعم، بالطبع كان يجب أن أقرع الباب، ولكن الحقيقة هي أنني أشعر ببعض الضيق ويمكن أن يكون هذا هو السبب.

ثم مرّر يده على جبهته كرجل يشعر بالدُّوار، وبعد ذلك جلس (أو بالأحرى سقط) على أحد الكراسي.

قال هولمز بأسلوبه اللطيف: أستطيع أن أرى أنك لم تنم لليلة أو اثنتين! إن هذا يتعب الأعصاب أكثر من العمل. هل أستطيع أن أعرف كيف أساعدك؟

- أنا أريد نصيحتك يا سيدي، فلا أعرف ماذا أفعل وحياتي قد تحطمت.

- هل ترغب في استخدامي كمخبر استشاري؟

- ليس هذا فقط، فأنا أريد رأيك كرجل حكيم، رجل عرف الحياة. أريد أن أعرف ماذا يجب أن أفعل في الخطوة التالية، وأدعو الله أن تكون قادراً على مساعدتي.

كان يتفجّر بعبارات قصيرة حادة متشنّجة، وبدا وكأن الكلام في حد ذاته يؤلمه وأن إرادته تُغالب طبيعته لإنهاء ما بدأه. قال: إنه أمر دقيق للغاية، فالمرء لا يرغب عادة في التحدث عن أمور عائلية مع الغرباء، بل يبدو فظيعاً مناقشة سلوك زوجتي مع رجلين لم أرَهما من قبل... من المريع أن

يضطر المرء لصنع ذلك، ولكن قدرتي على الاحتمال نفدت ويجب أن أحصل على النصيحة.

بدأ هولمز قائلاً: يا عزيزي السيد غرانت مونرو...

فقفز زائرنا من كرسيه وصاح: ماذا! هل تعرف اسمي؟

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

قال هولمز مبتسماً: إذا أردت أن تخفي هويتك فأقترح أن تتوقف عن كتابة اسمك على بطانة قبعتك، أو على الأقل أن تدير رأس قبعتك تجاه من تحدثه. لقد كنت على وشك القول أنني وصديقي استمعنا إلى الكثير من الأسرار الغريبة في هذه الغرفة، وقد حالفَنا الحظ فجلبنا الراحة لكثير من الأرواح المعذَّبة، وأعتقد أن من الممكن أن نفعل الشيء نفسه من أجلك. ولذلك أرجو -حيث قد يكون للوقت أهمية- أن تمدّني بالحقائق عن قضيتك دون تأخير.

مرّر زائرنا يده على جبهته مرة أخرى كما لو كان يجده أمراً شديد الصعوبة، وقد استطعت أن أرى من كل إشاراته وتعبيراته أنه شخص متحفظ مستقل بذاته مع مسحة من الكبرياء في طبيعته، فمن المرجَّح أنه اعتاد على إخفاء جراحه بدلاً من إظهارها.

وفجأة وبحركة عنيفة من يده المغلقة كمَن يُلقي بالتحفظ في مهب الريح بدأ قائلاً: إن الحقائق يا سيد هولمز هي أنني رجل متزوج، وأنا كذلك منذ ثلاث سنوات. وأنا وزوجتي يحبّ أحدُنا الآخَرَ بولع شديد ونعيش في سعادة كبيرة، ولم يكن بيننا أي خلاف من أي نوع لا في الأفكار ولا في الأفعال. ولكن منذ يوم الإثنين الماضي نشأ بيننا حاجز بطريقة مفاجئة، وأرى أن في حياتها وتفكيرها شيئاً لا أعرف عنه إلا مقدار ما كنت سأعرفه لو كانت امرأة غريبة مرَّت بي في الشارع. لقد صرنا غرباء، وأريد أن أعرف السبب! على أنني أرغب في تأكيد أمر مهم قبل أن أكمل حديثي يا سيد هولمز: إن إيفي

تحبني، فلا تدع مجالاً للشك في هذا الأمر، إنها تحبني بكل جوارحها، والآن أكثر من أي وقت مضى. أنا أعرف ذلك وأحسه ولا أريد المجادلة فيه، فالمرء يستطيع بسهولة معرفة ما إذا كانت المرأة تحبه أو لا تحبه. ولكنْ ثمّة سر بيننا ولن نعود إلى سابق عهدنا حتى يتضح الأمر.

قال هولمز بشيء من نفاد الصبر: أرجو أن تزوّدني بالحقائق يا سيد مونرو.

- سأخبرك بما أعرفه عن ماضي إيفي. لقد كانت أرملة حين قابلتها للمرة الأولى، بالرغم من صِغَر سنها، فقد كانت في الخامسة والعشرين من عمرها فقط، وكان اسمها في ذلك الوقت السيدة هيبرون. كانت قد رحلت إلى أمريكا وهي صغيرة وعاشت في مدينة أطلانطا حيث تزوجت هناك السيد هيبرون الذي امتلك مكتباً جيداً للمحاماة، وقد رُزقا بطفل واحد، وعندما انتشرت الحمّى الصفراء في المدينة مات الزوج والطفل بعد إصابتهما بها، وقد رأيت وثيقة موته. ما حدث جعلها تكره الحياة في أمريكا، فعادت لتعيش مع عمّة غير متزوجة في بلدة بينر في ميدلسكس. ويجب عليّ أن أقول إن زوجها تركها في بحبوحة من العيش، حيث كانت ثروتها تقدَّر بخمسة آلاف جنيه، وكان قد استثمرها بشكل جيد بحيث أصبحت تدرّ عائداً قدره سبعة في المئة في المتوسط. وقد مكثَت في بينر لمدة ستة أشهر فقط قبل أن أقابلها، فأحبّ كلٌّ منا الآخر وتزوجنا بعد ذلك بعدة أسابيع.

أنا أعمل تاجرَ أعشاب ودخلي يتراوح بين سبعمئة جنيه

وثمانمئة، ولذلك فقد وجدنا أنفسنا في راحة مادية، فاستأجرنا دارة بثمانين جنيهاً سنوياً في نوربوري. وكان يغلب على منزلنا الصغير الطابعُ الريفي إلى حد كبير بالرغم من قربه الشديد من المدينة، فبالقرب منّا مقهى ومنزلان، وكوخ واحد في الناحية الأخرى من الحقل الذي يواجهنا، ولا توجد منازل أخرى حتى تصل إلى نصف الطريق المؤدي إلى المحطة.

يتطلب عملي ذهابي إلى المدينة في مواسم معينة، أما في الصيف فلديّ القليل لأفعله، فعشت أنا وزوجتي في منزلنا الريفي في السعادة التي كنا نتمناها. وأؤكد لكما أنه لم يكن بيننا أي خلاف حتى بدأ هذا الموضوع الملعون. بقي شيء واحد يجب أن أخبركم به قبل أن أمضي قدماً، فعندما تزوّجنا نقلَت زوجتي كل أملاكها لي، وكان هذا ضدّ رغبتي لأنني فكرت كم سيكون الأمر خطيراً إذا ساءت أحوال أعمالي. علي أية حال تلك كانت رغبتها وهذا ما حصل. حسناً، منذ ستة أسابيع جاءت إليّ وقالت: جاك، عندما أخذتَ أموالي قلت إنني إذا أردت أي مال فيجب أن أطلبه منك.

قلت: بالطبع، فكله ملك لك.

قالت: حسناً، أنا أريد مئة جنيه.

ذهلت قليلاً لأنني تصورت أنها كانت تسعى وراء ثوب جديد أو شيء من هذا القبيل، فسألتها: لماذا بالله عليك؟

قالت بطريقتها المداعبة: آه، لقد قلت إنك ستكون مديراً لبَنكي، والبنك لا يسأل مثل هذه الأسئلة كما تعلم.

قلت: إذا كان هذا ما تريدينه فعلاً فسوف تحصلين على المال بالطبع.

- نعم، أنا أريد ذلك حقاً.

- ولن تخبريني لماذا تريدين المال؟

- يوماً ما، ربما، ولكن ليس الآن يا جاك.

فاضطررت إلى الموافقة، مع أن ذلك كان هو السرّ الأول بيننا، وأعطيتها شيكاً. لم أفكر في الموضوع ثانية، وربما لا يكون لهذا الأمر أيّ علاقة بما حدث بعد ذلك، ولكني فكرت أنّ من الأفضل ذكره.

حسناً، لقد أخبرتكما قبل قليل عن الكوخ الذي لا يبعد كثيراً عن منزلنا، حيث يفصل بيننا فقط حقل صغير، ولكن الوصول إليه يقتضي المشي بطول الطريق ثم الدوران والمشي في ممر منحدر، وخلفه مباشرة يوجد بستان لطيف صغير من أشجار الصنوبر الإسكتلندي. ولأن الأشجار من الأشياء المحبَّبة فقد اعتدت الاستمتاع بالتنزه هناك. وقد ظل هذا الكوخ خالياً لمدة ثمانية أشهر، وكان ذلك مؤسفاً لأنه مبنى جميل من طابقين وله شرفة على الطراز القديم وبجواره شجرة غنية برائحة الزهور، وقد وقفت مرات عديدة أفكر كيف سيكون منزلاً صغيراً أنيقاً للعيش فيه.

حسناً، مساء يوم الإثنين الماضي كنت أتمشى في ذلك الطريق حين قابلتني عربة نقل قادمة عبر الممر، ورأيت كومة

من الأثاث والسجّاد على مقربة من قطعة الأرض العشبية بجوار الشرفة الأمامية، وبدا واضحاً أن الكوخ قد سُكن أخيراً. مررت أمامه فتساءلت عن طبيعة الناس الذين أتوا ليقيموا بالقرب منا لهذه الدرجة، وبينما أنا أنظر أدركت فجأة بأن هناك وجهاً يراقبني من إحدى النوافذ العلوية.

لم أعرف ما خطب ذلك الوجه يا سيد هولمز، ولكن سَرَت في جسمي قُشَعْريرة، ولأنني كنت بعيداً قليلاً فلم أستطع تمييز الملامح، ولكن الانطباع الذي أخذته عنه هو أن فيه شيئاً غير طبيعي وغير إنساني. اقتربت بسرعة إلى الأمام لأحظى برؤية أوضح للشخص الذي يراقبني، ولكنه اختفى فجأة بلمح البصر، حتى بدا وكأن ظلام الغرفة قد ابتلعه!

وقفت خمس دقائق أفكر في الأمر وأحاول تحليل انطباعاتي، فقد كنت بعيداً جداً ولم يكن بإمكاني معرفة ما إذا كان الوجه لرجل أو لامرأة، ولكن لونه هو ما أثّر فيّ بشدة. كان لونه أصفر شاحباً وفيه من الجمود والقسوة ما يجعله غير طبيعي على الإطلاق!

انزعجت كثيراً فقررت أن أعرف المزيد عن سكان الكوخ الجدد، فاقتربت وقرعت الباب الذي فتحته امرأة طويلة نحيلة ذات وجه قاس منفّر. سألتني بلكنة شمالية: ماذا تريد؟

أجبتها وأنا أشير ناحية منزلي: أنا جارك وأسكن هناك، وقد عرفت أنكم انتقلتم للتوّ ففكرت أنني يمكن أن أساعدكم في أي...

قالت: سنطلب منك المساعدة حين نريدها.

ثم أغلقت الباب في وجهي، فانزعجت من رفضها الفظّ

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

واستدرت ذاهباً إلى منزلي. وبالرغم من محاولتي التفكير في شيء آخر طوال الأمسية إلا أن عقلي ظل يعود إلى التفكير في شبح النافذة ووقاحة المرأة. وقررت أن لا أقول شيئاً عن ذلك لزوجتي، فهي امرأة عصبية شديدة الحساسية ولم أرغب في تعريضها إلى الانطباع السيّئ الذي تعرضت له. أخبرتها فقط -قبل أن أنام- أن الكوخ سُكن، ولم أسمع منها أي تعليق.

أنا أنام في العادة نوماً عميقاً جداً، وهو أمر كان من النوادر المضحكة في العائلة، فلا شيء يمكن أن يوقظني. ومع ذلك، ولسبب ما في تلك الليلة بالذات، فقد نمت نوماً خفيفاً على غير العادة. لا أعرف إن كان للأمر علاقة بالإثارة الطفيفة التي نتجت عن مغامرتي الصغيرة، ولكني كنت بين النوم واليقظة حين شعرت بأن شيئاً ما يحدث في الغرفة.

بالتدريج أدركت أن زوجتي كانت ترتدي ملابسها وتضع عباءتها وقبعتها، وفتحت شفتيّ لأتمتم ببعض الكلمات الناعسة التي تنمّ عن الدهشة والاعتراض على هذا الأمر في ذلك الوقت غير الملائم، وفي تلك اللحظة بالذات وقعت عيناي شبه المفتوحتين على وجهها وقد أناره ضوء الشمعة، فشلّت الدهشة لساني، ذلك أنني لم أرَ مثل هذا التعبير المرتسم على وجهها من قبل. كانت شاحبة جداً وتتنفس بسرعة وتنظر باتجاه السرير فيما هي تضع العباءة لترى إن كانت قد أزعجتني، وبعدها تسلّلَت بلا ضجة إلى خارج الغرفة ظناً منها أنني ما زلت نائماً. ثم سمعتُ صريراً لا يصدر إلا من مفصّلات الباب الأمامي، فجلست في سريري وطرقت بإصبعي على

حاجز السرير لأتأكد من أنني مستيقظ حقاً، وأخذت ساعتي من تحت الوسادة فإذا بها تشير إلى الثالثة صباحاً، فماذا بالله عليك يمكن أن تفعل زوجتي خارجاً في الطرقات الريفية في الساعة الثالثة صباحاً؟!

جلست لمدة عشرين دقيقة أقلّب الأمر في عقلي محاوِلاً العثور على تفسير معقول، ولكن كلما فكرت في الأمر وجدته غيرَ عادي وغيرَ قابل للتفسير. وبينما كنت لا أزال أفكر في الأمر محتاراً سمعت الباب يُغلَق بهدوء وصوت خطوات أقدامها تصعد الدرج. فسألتها حين دخلت: أين كنت يا إيفي؟

جفلت وشهقت صائحة عندما تكلمت، وقد أزعجَتني جفلتها وصرختها أكثر من كل ما حدث، فقد وجدته ردّ فعل يوحي بشيء من الذنب لا يمكن تفسيره. لقد كانت زوجتي دائماً امرأة ذات طبيعة صريحة، ولذلك فقد سرت قُشَعريرة في جسمي لرؤيتها تتسلل إلى غرفتها وتصيح وتجفل حين يخاطبها زوجها.

صاحت بضحكة عصبية: أأنت مستيقظ يا جاك؟! يا للعجب! اعتقدت أن لا شيء يمكن أن يوقظك.

سألتها بصرامة أكبر: أين كنت؟

لاحظت ارتعاش يديها وهي تفكّ أزرار معطفها وتقول: لا عجب في دهشتك، يا إلهي! أنا نفسي لا أتذكر أنني صنعت شيئاً مشابهاً في حياتي من قبل. في الحقيقة لقد شعرت أنني أختنق ووددت أن أستنشق بعض الهواء، فقد ظننت أنني

سأفقد الوعي إذا لم أخرج، فوقفت بباب البيت لعدة دقائق، والآن عدت لطبيعتي مرة ثانية.

لم تنظر باتجاهي طوال الوقت الذي كانت تقصّ فيه عليّ هذه القصة، وكانت نبرة صوتها غير عادية، ومن الواضح أن ما تقوله غير صحيح. ولم أردّ عليها بشيء، بل أدرت وجهي إلى الحائط وأنا منقبض الصدر يملأ قلبي ألفُ شك وارتياب، فما الذي تخفيه زوجتي عني؟ وأين كانت خلال ذلك الغياب الغريب؟ شعرت أنني لن أستعيد هدوئي وراحة بالي حتى أعرف، ولكني جَبُنتُ عن سؤالها مرة أخرى بعدما أخبرتني بما ليس صحيحاً، وقضيت بقية الليل أتقلب وأكوّن النظرية تلو الأخرى وكل واحدة أقل احتمالاً من التي سبقتها.

كان يجب أن أذهب إلى المدينة في ذلك اليوم، ولكني كنت منزعجاً جداً ولم أكن لأستطيع الانتباه في العمل، وبدت زوجتي منزعجة مثلي وكنت أستطيع رؤية ذلك من النظرات الخاطفة المتسائلة التي استمرت بإرسالها إليّ معبّرة عن أنها تفهم أنني لم أصدق ما قالته وأنها لا تعرف ماذا تفعل.

لم نتبادل الكلام في أثناء الإفطار، وبعده مباشرة خرجت لأتمشى أملاً في أن أدرك شيئاً من الأمر في هواء الصباح النقي. ثم ذهبت إلى قصر الكريستال فقضيت ساعة في الساحة وعدت إلى نوربوري في الساعة الواحدة، وتصادف أنني مررت أمام الكوخ فتوقفت لحظة أنظر إلى النوافذ متسائلاً إذا ما كنت أستطيع رؤية الوجه الغريب الذي راقبني في اليوم

السابق. وبينما أنا أقف هناك... تخيل دهشتي يا سيد هولمز؛ فُتح الباب فجأة وخرجت منه زوجتي!

شلّت الدهشة لساني عندما رأيتها، ولم تكن مشاعري لتذكَر مقارنة بالمشاعر التي ظهرت تعبيراتها على وجهها حين التقت عيوننا، وبدت للحظة وكأنها تتمنى أن تختفي داخل الكوخ ثانية. وحين أدركَت أن المواراة لن تجدي نفعاً تقدمت بوجه شديد الشحوب وعينين خائفتين كذّبَتا الضحكة المرتسمة على شفتيها وقالت: آه، جاك... لقد جئت لأرى ما إذا كنت أستطيع تقديم المساعدة لجيراننا الجدد، فلماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟ أنت لست غاضباً مني، أليس كذلك؟

قلت: إذن لقد جئت إلى هنا في الليل؟

صاحت قائلة: ماذا تعني؟

- لقد جئتِ إلى هنا، أنا متأكد من ذلك. فمَن هؤلاء الناس الذين كان يجب عليك زيارتهم في مثل تلك الساعة؟

- لم آتِ إلى هنا من قبل.

صحت قائلاً: كيف تخبرينني ما تعرفين أنه غير صحيح، فحتى صوتك يفضحك حين تتكلمين. هل حدث قَطّ أن أخفيت سراً عنك؟ سأدخل إلى الكوخ وأكتشف كل شيء.

شهقت في نوبة انفعال جامحة وقالت: لا، لا يا جاك، بالله عليك!

اقتربتُ من الباب فأمسكَت بكمّي وسحبتني إلى الخلف

بقوة متشنجة وهي تقول: أتوسل إليك أن لا تفعل ذلك يا جاك. أقسم لك أنني سأخبرك بكل شيء في يوم من الأيام، ولكن دخولك الآن لن يجلب علينا سوى الشقاء.

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

وحينما حاولتُ الإفلات منها تمسّكَت بي بتوسّل محموم وصاحت: ثِقْ بي يا جاك، ثِق بي في هذه المرة فقط ولن تندم أبداً. أنت تعرف أنني لم أكن لأخفي عنك سراً إلا إذا كان ذلك لمصلحتك، فحياتنا كلها معرضة للخطر بهذا الأمر، ولو جئت معي إلى المنزل فسيصبح كل شيء على ما يرام، أما إذا اقتحمت هذا الكوخ فسوف ينتهي كل شيء بيننا إلى الأبد.

كان في سلوكها من اليأس ما جعل كلماتها تتمكن مني، فتوقفت متردداً أمام الباب. وأخيراً قلت: سأثق بك بشرط واحد... شرط واحد فقط، هو أن ينتهي هذا اللغز الآن، فتكون لك الحرية بحفظ سرّك على أن تعديني بأن لا تتكرر الزيارات الليلية وأن لا تفعلي شيئاً بغير علمي. أنا على استعداد لنسيان ما مضى إذا وعدتِني بأن لا يتكرر في المستقبل.

صاحت قائلة وهي تتنهّد بارتياح كبير: كنت واثقة أنك ستثق بي. سيكون الأمر كما تتمنى، تعال... آه، تعالَ لنذهب إلى المنزل.

ثم قادتني بعيداً عن الكوخ وهي ما تزال متشبّثة بكمي، وبينما نحن نبتعد ألقيت نظرة خاطفة إلى الوراء، وهناك كان ذلك الوجه الأصفر الشاحب يراقبنا من النافذة العلوية. ما هي الصلة بين هذا المخلوق وبين زوجتي؟ وكيف يمكن لتلك المرأة القاسية الغليظة التي رأيتها في اليوم السابق أن تكون على صلة بها؟ لقد كان لغزاً محيّراً، وصرت على يقين أنني لن أشعر بالراحة حتى أحلّه.

مكثت في المنزل يومين بعد ما حدث، وبدا أن زوجتي ملتزمة باتفاقنا بإخلاص لأنها -بحسب علمي- لم تخرج من المنزل نهائياً، وإن كنت قد حصلت في اليوم الثالث على دليل بأن وعدها المقدَّس لم يكن كافياً ليبقيها بعيداً عن ذلك المؤثّر السري الذي يبعدها عن زوجها وواجبها، فقد ذهبتُ إلى المدينة في ذلك اليوم ثم عدت بقطار الساعة الثانية وأربعين دقيقة بدلاً من قطاري المعتاد في الثالثة وست وثلاثين دقيقة. وحين دخلت المنزل جرت الخادمة إلى الصالة بوجه مذعور، فسألتها: أين سيدتك؟

أجابت: أعتقد أنها خرجت لتتمشى.

امتلأ عقلي بالشك فوراً، فأسرعت إلى الطابق العلوي لأتأكد أنها ليست في المنزل. وفيما أنا أفعل ذلك تصادف أن نظرت من إحدى النوافذ العلوية، فرأيت الخادمة التي تحدثت معها للتو تجري عبر الحقل باتجاه الكوخ، وعندها فهمت معنى ذلك كله... فقد ذهبت زوجتي إليه وطلبت من الخادمة أن تناديها إذا حدث ورجعْتُ.

نزلت مسرعاً يتملكني الغضب وهرعت وأنا أنوي إنهاء هذا الأمر إلى الأبد، ورأيت زوجتي ومعها الخادمة، فلم أتوقف للحديث معهما لأن السر الذي ألقى بظلاله على حياتي موجود في الكوخ، وقد أقسمت على أن لا يكون سراً بعد الآن وليحدث ما يحدث.

عندما وصلت لم أدقّ على الباب، بل أدرت المقبض

واندفعت إلى الممر. كان كل شيء هادئاً ساكناً في ساحة المنزل، أما في المطبخ فكانت الغلّاية تئزّ على النار فيما كانت هناك قطة كبيرة سوداء ترقد في السلة، ولكن لم يكن فيه أثر للمرأة التي رأيتها من قبل. جريت إلى الحجرة الأخرى، ولكنها كانت مهجورة أيضاً. ثم ارتقيت الدرَج لأجد في الأعلى غرفتين أخريَين خاليتين، بل ومهجورتين! لم يكن في المنزل كله أحد على الإطلاق، أما الأثاث فكان سوقيّاً إلا في إحدى الغرف التي سبق وأن رأيت من نافذتها ذلك الوجه الغريب... كانت تلك الغرفة مريحة أنيقة، وازدادت شكوكي اشتعالاً حين رأيت على رفّ المدفأة نسخة من صورة لزوجتي كانت قد التُقطت بناءً علي رغبتي منذ ثلاثة أشهر فقط!

بقيت في المنزل مدة كافية لأتأكد أنه خالٍ تماماً، وبعدها غادرت وأنا أحس بثقل في قلبي لم أشعر به من قبل. وحين دخلت إلى المنزل قابلَتني زوجتي في الصالة، ولكني كنت مجروحاً وغاضباً لدرجة أنني لم أستطع التحدث إليها، فتجاوزتها مندفعاً إلى غرفة مكتبي، فتبعتني قبل أن أتمكن من إغلاق الباب.

قالت: أنا آسفة لعدم التزامي بوعدي لك يا جاك، ولكن لو عرفتَ كل الظروف فأنا على ثقة أنك ستغفر لي.

قلت: فأخبريني بكل شيء إذن.

صاحت قائلة: لا أستطيع يا جاك، لا أستطيع.

قلت: لن يكون بيننا أي ثقة أبداً حتى تخبريني مَن كان

يسكن ذلك الكوخ ولمَن أعطيت صورتك.

ثم ابتعدت عنها وغادرت المنزل. كان ذلك بالأمس يا سيد هولمز، ولم أرَها من ذلك الحين ولا أعرف أي شيء آخر عن هذا الأمر الغريب الذي وقف حائلاً بيننا، وقد هزّني لدرجة أنني لم أعد أعرف ما هو أفضل ما أستطيع عمله. وفجأة خطر لي هذا الصباح أنك الرجل الذي يستطيع نصحي، فأسرعت إليك لأضع نفسي بين يديك. لو بقيت أي نقطة لم أوضّحها فاسألني عنها لو سمحت، ولكن قبل كل شيء أخبرني بسرعة ماذا أفعل، فهذا الشقاء يفوق احتمالي.

استمعنا أنا وهولمز باهتمام كبير لتلك القصة الغريبة التي

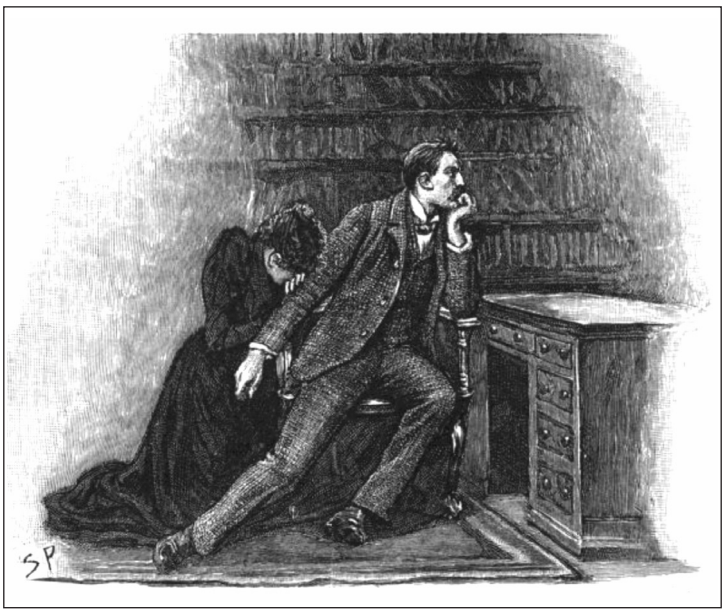

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

قُدِّمت بطريقة متشنجة منكسرة لرجل يرزح تحت تأثير مشاعر عنيفة. وجلس رفيقي صامتاً لبعض الوقت يسند ذقنه على يده وهو غارق في التفكير، ثم قال أخيراً: أخبرني، هل أنت متأكد أن الوجه الذي رأيته وجه رجل؟

- لا أستطيع الجزم، لأنني كنت على مسافة بعيدة عنه في كل مرة رأيته فيها.

- ولكن يبدو أنه ينتابك شعور سيّئ تجاهه على أية حال؟

- لقد بدا لونُه غيرَ طبيعي وفي ملامحه قسوة غريبة، وعندما اقتربت تلاشى بانتفاضة.

- كم مضى من الوقت منذ طلبَت منك زوجتك الجنيهات المئة؟

- شهران تقريباً.

- هل سبق أن رأيت صورة لزوجها الأول؟

- لا؛ لقد اندلع حريق عظيم في أطلانطا بعد وفاته بفترة قصيرة فدُمّرت كل أوراقها.

- ولكنها تملك وثيقة وفاته، أنت قلتَ إنك رأيتها؟

- نعم، لقد استخرجَت نسخة مطابقة بعد الحريق.

- هل سبق أن قابلتَ أحداً كان يعرفها في أمريكا؟

- لا.

- هل تحدثَت قط عن زيارة أمريكا مرة أخرى؟

- لا.

- أو استقبلت رسائل منها؟

- لا.

- شكراً. أرغب في التفكير الآن في هذا الأمر لبعض الوقت. إذا كان الكوخ قد هُجِر بصفة دائمة فقد تواجهنا بعض الصعوبة، أما إذا أُنذرسكّانه بقدومك فغادروه قبل دخولك أمس (وهذا ما أظنه) فعندئذ ربما كانوا قد عادوا الآن، ويمكننا حل المشكلة بسهولة. والآن سأنصحك بأن تعود إلى نوربوري وتفحص نافذة الكوخ مرة أخرى، فإذا وجدت سبباً يدعوك إلى الظن بأنه مأهول فلا تقتحمه، ولكن أرسِلْ إليّ برقية وسأكون وصديقي معك في غضون ساعة من استلامها، وسوف نتوصل عندها إلى حقيقة الأمر بسرعة.

- وإذا كان لا يزال خالياً؟

- في هذه الحالة سأزورك غداً لمناقشة الأمر. وداعاً، وأهمّ شيء هو أن لا ينتابك الخوف قبل أن يكون لديك سبب مؤكد له.

* * *

قال رفيقي بعد عودته من مرافقة السيد غرانت مونرو إلى الباب: أخشى أن هذا الأمر سيّئ يا واطسون. ما رأيك؟

أجبته: إن فيه ما يوحي بشيء بغيض.

- نعم، سأكون مخطئاً إن لم يكن في هذا الأمر ابتزاز.

- ومَن هو المبتزّ؟

- لا بد أنه ذلك المخلوق الذي يعيش في الغرفة الوحيدة المريحة في ذلك المكان، والذي يضع صورة للزوجة فوق المدفأة. أرى يا واطسون أن ثمّة شيئاً ملفتاً للنظر يتعلق بذلك الوجه الأصفر في النافذة، ولم أكن لأضيع هذه القضية بأي ثمن.

- هل كوّنت نظرية؟

- نعم، نظرية مؤقّتة، وسوف أُدهَش إذا لم تثبت صحّتها: إن الزوج الأول لتلك المرأة موجود في ذلك الكوخ.

- لماذا تعتقد ذلك؟

- بأي شيء سوى ذلك يمكنك تفسير قلقها المحموم من دخول زوجها الثاني إلى الكوخ؟ إن الحقائق كما أتصورها هي كالتالي: كانت هذه المرأة متزوجة في أمريكا، وربما أُصيب زوجها ببعض الصفات الكريهة، أو لنقل إنه أصيب بمرض كريه وأصبح منبوذاً أو معتوهاً، فابتعدت عنه في النهاية وعادت إلى إنكلترا حيث غيّرت اسمها وبدأت حياتها (كما كانت تعتقد) بداية جديدة. ومرّت بعد ذلك ثلاث سنوات على زواجها وبدأت تعتقد أنها في موقف آمن حين اكتشف زوجها الأول مكانها. أو لنفرض أن امرأة عديمة الضمير ربطت نفسها بهذا العاجز ثم أرسلا إلى الزوجة خطاباً ليهدّداها بأنهما سيحضران ويفضحانها. عندئذ تطلب الزوجة مئة جنيه وتسعى لرشوتهما، ولكنهما يأتيان بالرغم من ذلك، وحين يذكر

الزوج لزوجته عَرَضاً أن قوماً سكنوا الكوخ تعرف الزوجة بطريقة ما أنهم مُطارِدوها، فتنتظر حتى ينام زوجها وتسرع محاولةً إقناعَهم بأن يتركوها في سلام. وحيث إنها لم تنجح فإنها تعود ثانية في الصباح التالي ويقابلها زوجها وهي تخرج، فتَعِده بأن لا تذهب هناك مرة أخرى، ولكن بعد يومين يدفعها الأمل في التخلص من هؤلاء الجيران المزعجين إلى القيام بمحاولة أخرى، فتأخذ معها صورتها (التي يُحتمَل أن تكون قد طُلبت منها) وتذهب إليهما، وبينما هم في وسط المقابلة تندفع الخادمة لتقول إن سيدها عاد إلى المنزل. ولأن الزوجة تعرف أنه سيتجه إلى الكوخ رأساً فإنها تسرع بإخراج الساكنين من الباب الخلفي إلى بستان أشجار الصنوبر الذي قيل إنه قريب، وبهذه الطريقة يجد الزوج المكان مهجوراً. سأكون في غاية الدهشة إذا كان لا يزال على هذه الحال حين يستكشفه الزوج في المساء. ما رأيك في نظريتي؟

- هذا كله مجرد تخمين.

- ولكنه يغطي كل الحقائق على الأقل، وحين تصلنا حقائق أخرى لا تؤيده سيكون الوقت مناسباً لإعادة النظر فيه. ولن نستطيع فعل أي شيء حتى نتسلم الرسالة من صديقنا في نوربوري.

* * *

لم ننتظر لوقت طويل، حيث وصلت الرسالة في الوقت الذي انتهينا فيه من شرب الشاي، وفيها: "الكوخ ما يزال

مسكوناً. رأيت الوجه ثانية في النافذة. أنتظركما في قطار السابعة. لن أصنع شيئاً حتى ذلك الحين".

كان الزوج ينتظرنا على الرصيف حين خرجنا واستطعنا رؤية شحوبه الشديد في ضوء مصابيح المحطة، وكان يرتجف من شدة الانفعال. أمسك بكمّ صديقي بشدة وقال: إنهما ما زالا هناك يا سيد هولمز، لقد رأيت أضواء في الكوخ وأنا في طريقي إلى هنا. لننتهِ من هذا الأمر إلى الأبد!

سأله هولمز فيما هو يمشي على الطريق المظلم المحاط بالأشجار على الجانبين: ما هي خطتك إذن؟

- سأقتحم المكان لأرى بنفسي مَن في البيت، وأرجو أن تكونا هناك لتشهدا على ذلك.

- هل أنت مصمّم على فعل ذلك بالرغم من تحذير زوجتك بأن الأفضل أن لا تحاول حل اللغز؟

- نعم، أنا مصمم.

- حسناً، أحسب أنك على حق، فالحقيقة أيّاً كانت أفضل من الشك غير المؤكد. لنذهب هناك على الفور، وإن كنا بعملنا هذا قد نضع أنفسنا تحت طائلة القانون، ولكن الأمر يستحق المحاولة.

* * *

كانت ليلة حالكة الظلام، وبدأ المطر الخفيف يهطل حين تركنا الطريق السريع واتجهنا إلى ممر ضيق عميق الحفر

محاط على جانبيه بالأشجار، حيث تقدم السيد مونرو إلى الأمام بسرعة، وقد مشينا خلفه بأسرع ما يمكننا.

تمتم وهو يشير إلى ضوء بين الأشجار: هذه الأضواء من منزلي، وها هو هناك الكوخ الذي سأدخله.

انعطفنا في الممرّ وهو يتحدث، وكان المبنى قريباً منا فيما ظهر عمود أصفر من الضوء على الأرض السوداء أمام المنزل، مما يوحي بأن الباب غير مغلق تماماً. كانت إحدى نوافذ الدور العلوي مضاءة، وحين نظرنا هناك رأينا ظلاً أسمر يتحرك خلف الستارة.

صاح غرانت مونرو: ها هو ذا المخلوق. ثَمّة أحد في البيت. والآن اتبعاني وسنعرف كل شيء عمّا قريب.

اقتربنا من الباب، وفجأة ظهرت امرأة من وسط الظلام لتقف في الأثر الذهبي لضوء المصباح. لم أستطع رؤية وجهها في الظلام، ولكنها كانت تمدّ ذراعيها باستعطاف قائلة: لا تفعل ذلك يا جاك بالله عليك. لقد خشيت أن تأتي هذا المساء. أعِد التفكير في الأمر يا عزيزي، ثق بي ثانية ولن تندم.

صاح بصرامة: لقد وثقت بك بما فيه الكفاية يا إيفي. اتركيني أذهب... يجب أن أتجاوزك فأنا وأصدقائي سنحسم هذا الأمر إلى الأبد.

دفعها جانباً وتبعناه عن قرب، وحين دفع الباب ليفتحه اندفعت امرأة عجوز لتقف أمامه وحاولت أن تسد عليه الممر، ولكنه دفعها إلى الخلف. وبعد لحظة كنا جميعاً على الدرج،

وأسرع غرانت مونرو ليدخل الغرفة المضاءة فيما تبعنا خطاه.

كانت غرفة دافئة مفروشة جيداً وفيها شمعتان تشتعلان على الطاولة واثنتان على رف المدفأة، وفي الزاوية جلست مَن بدت كطفلة صغيرة منحنية على مكتب، وكان وجهها ملتفتاً

رسم ولْيَم هايْد (١٨٩٣) William Hyde (1893)

إلى الناحية الأخرى حين دخلنا، لكننا رأينا أنها ترتدي ثوباً أحمر وقفازاً طويلاً أبيض اللون. وحين أدارت وجهها ناحيتنا أطلقت صرخة فزع ودهشة، فالوجه الذي أدارته باتجاهنا كان أصفر شاحباً بغرابة والملامح كانت بلا أي تعبير.

بعد لحظة كُشف اللغز. مَدّ هولمز يده -وهو يبتسم- خلف أذن الطفلة فانزاح القناع عن وجهها، فبدت طفلة زنجية سوداء بلون الفحم تضحك بملء شدقيها من وجوهنا المستغرِبة، فانفجرتُ في الضحك متعاطفاً مع مرحها، أما غرانت مونرو فقد وقف محملقاً وقد أمسك رقبته بكلتا يديه وصاح: يا إلهي! ماذا يعني هذا؟

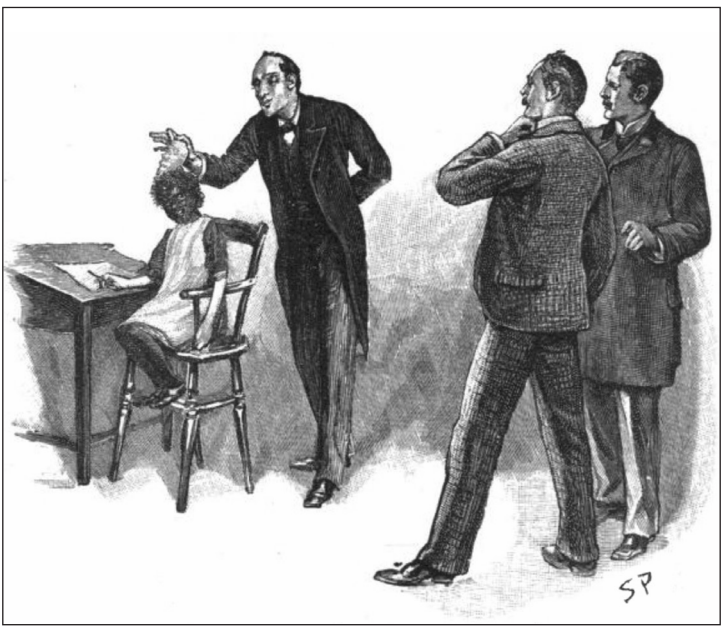

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

صاحت المرأة مقتحمة الغرفة بوجه صارم: سأخبرك بمعناه. لقد أجبرتني على إخبارك بالرغم من عدم رغبتي، والآن يجب علينا أن نتعامل مع الأمر. لقد مات زوجي في أطلانطا، ولكن طفلتي نجت.

- طفلتك؟!

سحبت قلادة فضية كبيرة من صدرها وقالت: أنت لم ترَ هذه مفتوحة من قبل.

- لقد فهمت أنها لا تُفتَح.

ضغطت زرّاً صغيراً فانفتحت القلادة، وكانت في داخلها صورة لشاب وسيم جداً يبدو عليه الذكاء، ولكن ملامحه تدل على أنه ينحدر من أصول أفريقية.

قالت السيدة: هذا هو جون هيبرون من أطلانطا، وقد كان أنبل إنسان عرفته. لقد عزلت نفسي عن أبناء جنسي الأبيض لأتزوجه، ولم أندم على قراري للحظة واحدة طوال حياته، ولكن سوء حظنا أن طفلتنا الوحيدة ورثت اللون عن أهله وليس عن أهلي، وهو ما يحدث غالباً في مثل هذه الزيجات. الصغيرة لوسي جاء لونها أكثر سواداً مما كان عليه أبوها. ولكن مهما كانت، سوداء أو بيضاء، فإنها فتاتي الصغيرة العزيزة.

جرت الطفلة عند سماعها هذا الكلام فاستكانت بين يدي السيدة، وعندها أكملت قائلة: تركتها في أمريكا لأن صحتها كانت ضعيفة وكان التغيير سيضرّها، ووضعتها في

رعاية امرأة إسكتلندية مخلصة كانت خادمتنا ذات يوم. لم أحلم قط بنكرانها كابنتي، ولكن حين رماك القدر في طريقي -يا جاك- وأحببتك خفت أن أخبرك عن ابنتي، فليسامحني الله.

خفت أن أخسرك ولم أملك الشجاعة لإخبارك، وأحسستُ أن عليّ الاختيار بينكما، وفي لحظة ضعفي أدرت ظهري لابنتي الوحيدة واحتفظت بوجودها سراً عنك لمدة ثلاث سنوات. ولكني عرفت أخبارها من الممرضة وعرفت أن كل شيء يسير كما ينبغي، وفي النهاية تمكّنَت مني رغبة جارفة برؤية طفلتي من جديد، وقد قاومت تلك الرغبة ولكن بلا جدوى.

وبالرغم من معرفتي بخطورة الأمر قررت أن أُحضر الطفلة إلى هنا، ولو حتى لأسابيع معدودة، فأرسلت إلى الممرضة مئة جنيه وأعطيتها تعليمات عن هذا الكوخ لتستطيع الحضور كجارة لنا من غير أن تُظهر صلتي بها، واتخذت الاحتياطات القصوى، لدرجة أنني أمرتها بإبقاء الطفلة داخل المنزل أثناء النهار وبتغطية وجهها الصغير ويديها حتى لا يثرثر من يراها من النافذة بأن في الجوار طفلة سوداء. ولو كنت أقل حذراً لكان ذلك أكثر حكمة، ولكني كنت خائفة جداً من أن تعرف الحقيقة.

كنتَ أنت مَن أخبرني أولاً بأن الكوخ قد سُكن، وكان يجدر بي أن أنتظر حتى الصباح، لكني لم أستطع النوم بسبب شدة الانفعال، فتسللت أخيراً إلى الخارج لمعرفتي بصعوبة

إيقاظك. لكنك شاهدتني وأنا ذاهبة، فكان ذلك بداية متاعبي، ففي اليوم التالي كان سرّي تحت رحمتك، إلا أنك أحجمت عن ملاحقة الأمر لنبلك، وبعدها بثلاثة أيام هرّبتُ الممرضة والطفلة من الباب الخلفي قبل اقتحامك الباب الأمامي مباشرة.

وأخيراً قالت: والآن وقد عرفتَ كل شيء جاء دوري لأسألك: ماذا سيحدث لنا أنا وطفلتي؟

ثم شبكت يديها وانتظرت الإجابة.

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

مرّت عشرُ دقائق كاملة قبل أن يقطع غرانت مونرو الصمت الطويل، وجاءت إجابته كواحدة من أحبّ الذكريات إلى قلبي، فقد حمل الطفلة الصغيرة وقبّلها. وكان ما يزال يحملها حين مَدّ يده إلى زوجته واتجه نحو الباب قائلاً: نستطيع أن نناقش الأمر براحة أكبر في المنزل. أنا لست رجلاً مثالياً يا إيفي، ولكن أعتقد أنني أفضل ممّا كنت تظنين.

وحين تبعناهما عبر الممر جذبني صديقي لدى خروجنا قائلاً: أظن أن فائدتنا ستكون أكبر في لندن ممّا هي في نوربوري.

* * *

لم يذكر هولمز كلمة أخرى عن القضية حتى وقت متأخر من تلك الليلة حين كان متجهاً إلى غرفته وهو يحمل شمعته المضاءة، حينها قال: إذا لاحظت يا واطسون أنني صرت شديد الثقة بقدراتي أو أنني أعطي قضية ما مجهوداً أقل مما تستحق فأرجو أن تهمس في أذني بكلمة «نوربوري»، وسوف أفهمك بالتأكيد.

* * *

مذكرات شيرلوك هولمز

(٤)

مغامرة موظَّف البورصة

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية

في عدد آذار (مارس) ١٨٩٣

بعد زواجي بفترة قصيرة اشتريت عيادة في منطقة بادنغتون. وكان عمل الدكتور فاركهار العجوز (الذي اشتريت منه العيادة) ممتازاً في وقت من الأوقات، ولكن تقدّمه في السن والشلل الرعّاش الذي عانى منه أضعفا عمله بدرجة كبيرة.

يعتقد الناس أن مَن يتصدى لعلاج الآخرين ينبغي أن يكون سليماً، وغالباً ما ينظرون بعين الشك إلى من لا يستطيع علاج حالته الخاصة بالأدوية التي يصفها لمرضاه. وهكذا فحين ضَعُفَ عمل سلَفي هبطت قيمة عيادته، حتى إن عائداتها -حين اشتريتها منه- كانت قد هبطت من ألف ومئتَي جنيه إلى نحو ثلاثمئة جنيه في العام. ولكنني كنت واثقاً من شبابي وقوّتي، وكنت مقتنعاً بأن العيادة سترجع إلى ازدهارها السابق خلال سنوات قليلة.

استغرقت في العمل تماماً لمدة ثلاثة أشهر بعدما توليت العيادة، ولم أعُد أرى صديقي هولمز إلا قليلاً، فلم أستطع الذهاب إلى منزله في شارع بيكر لكثرة انشغالي، أما هو فما كان ليذهب إلى أي مكان إلا لأمر متعلق بالعمل، ولذلك فوجئت في صباح أحد أيام حزيران (يونيو) وأنا جالس أقرأ المجلة الطبية البريطانية بعد الإفطار عندما سمعت صوت الجرس، ثم صوت صديقي القديم العالي الحاد النبرات.

قال وهو يقطع الغرفة: عزيزي واطسون، أنا سعيد جداً برؤيتك، وأنا على ثقة بأن السيدة واطسون قد تعافت من كل الإثارة التي سبّبَتها مغامرة «علامة الأربعة».

قلت وأنا أردّ سلامه بحرارة: شكراً لك، نحن بخير.

أكمل وهو يجلس على الكرسي الهزاز: كما أتمنى أيضاً أن لا تكون العناية بالعيادة قد صرفتك عن الاهتمام الذي اعتدتَ أن تبديه بالمشكلات الاستنتاجية الصغيرة.

أجبت: بالعكس، فبالأمس فقط كنت أراجع ملاحظاتي القديمة وأصنف بعضاً من النتائج السابقة.

- إذن آمل أن لا تعتبر مجموعتك منتهية.

- بل أتمنى أن أحظى بالمزيد من بعض تلك الخبرات.

- اليوم على سبيل المثال؟

- نعم، اليوم إذا أردت.

- حتى لو اضطُررت إلى الذهاب إلى بيرمنغهام؟

- بالتأكيد، إذا كان هذا ما تريد.

- والعيادة؟

- أنا أعمل في عيادة جاري عندما يكون غائباً، وهو على استعداد دائماً لردّ الدَّين.

- رائع، لا شيء أفضل من هذا.

قال هولمز وهو يميل إلى الخلف في كرسيه وينظر إليّ

باهتمام من تحت جفنين نصف مغمضَين: ألاحظ أنك كنت مريضاً مؤخراً؟ إن برد الصيف مُتعب قليلاً.

- لقد لزمت المنزل لمدة ثلاثة أيام خلال الأسبوع الماضي بسبب نوبة زُكام شديدة، ولكني ظننت أنني تخلصت من كل أثر لها.

- لقد تخلصتَ منها بالفعل وتبدو بصحة جيدة.

- كيف عرفت بالأمر إذن؟

- يا صديقي العزيز، أنت تعرف أساليبي.

- استنتجتَ الأمر إذن؟

- بالتأكيد.

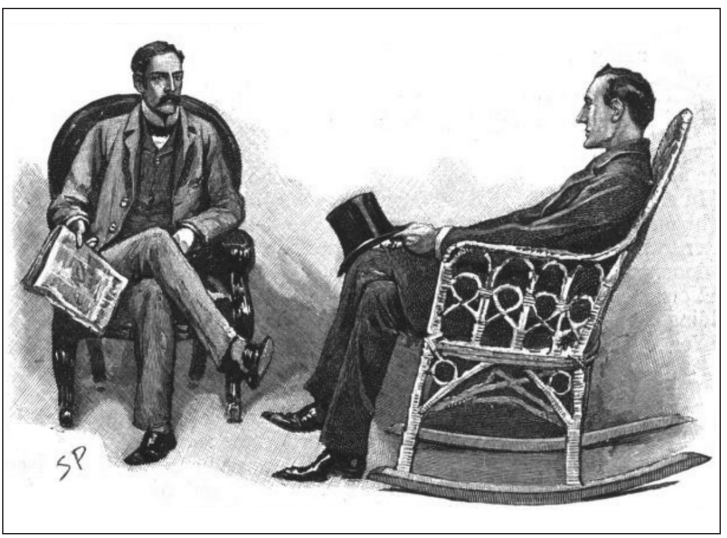

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

- من أي شيء؟

- من خُفَّيك.

ألقيت نظرة سريعة على خُفَّي الجديدَين المصنوعَين من الجلد ثم قلت: كيف...؟

ولكن هولمز أجاب عن سؤالي قبل أن أسأله فقال: خُفّاك جديدان، فأنت لم تحصل عليهما إلا منذ أسابيع قليلة، والنعل الذي توجهه ناحيتي محروق قليلاً، وقد فكرتُ للحظة أنه ربما ابتلّ واحترق وأنت تجففه، ولكني لاحظت ورقة دقيقة دائرية عليها اسم الصانع بالقرب من مشط القدم، وكان البلل سيزيلها بالطبع. إذن فقد كنت تجلس وقدماك ممدودتان ناحية النار، ولن يفعل ذلك شخصٌ في كامل صحته في شهر حزيران (يونيو) حتى لو كان شهراً ممطراً كهذا.

كسائر تحليلات هولمز المنطقية بدا الأمر بسيطاً بعد شرحه. وقد قرأ هولمز أفكاري فابتسم ابتسامة مصبوغة بالمرارة ثم قال: أخشى أنني أكشف نفسي حين أقدّم الشرح، فالنتائج تكون أكثرَ وقعاً على النفس دون معرفة التعليل. حسناً، هل أنت مستعد للذهاب إلى بيرمنغهام؟

- بالتأكيد، ولكن ما هي القضية؟

- ستسمعها كلها في القطار، فعميلي في عربة بالخارج. هل تستطيع التحرّك حالاً؟

- في دقائق معدودة.

كتبت لجاري ملاحظة مقتضبة، ثم أسرعت إلى الدور العلوي لشرح الأمر لزوجتي، وبعد ذلك لحقت بهولمز على عتبة الباب.

أومأ هولمز إلى اللوح النحاسي وقال: إن جارك طبيب.

- أجل، وقد اشترى أيضاً عيادة كما فعلت.

- أكانت عيادة قديمة؟

- نعم، مثل عيادتي بالضبط، فقد بدأ كلاهما مع بناء المنازل.

- لقد حصلت على أحسن الاثنتين إذن.

- أعتقد ذلك، ولكن كيف عرفت؟

- عن طريق الدرَج يا بني، فدرَجك أكثر تآكلاً من درَج عيادته بثلاث بوصات. آه، ها هو عميلي السيد هال بايكروفت. دعني أقدمك إليه. هيا أيها السائق، فلا وقت نضيعه قبل موعد القطار.

* * *

كان السيد الذي وجدت نفسي في مواجهته شاباً قويّ البنية ذا بشرة نضرة ووجه صريح وشارب أشقر خفيف مشعث، وكان يرتدي قبعة مرتفعة شديدة اللمعان وبدلة أنيقة سوداء اللون أعطته مظهراً مناسباً كشاب أنيق من المدينة. وبدا من وجهه المتورّد وكأن المرح من طبيعته، ولكن زوايا فمه

تميل إلى الأسفل في كآبة شبه كوميدية كما بدا لي. لم أستطع معرفة المشكلة التي قادته إلى شيرلوك هولمز حتى ركبنا جميعاً في عربة الدرجة الأولى وانطلقنا إلى بيرمنغهام.

قال هولمز: أمامنا رحلة تستغرق سبعين دقيقة، وأريدك -يا سيد بايكروفت- أن تخبر صديقي بتجربتك الشيقة بالتفصيل الذي أخبرتني به عنها أو بتفصيل أكثر إذا أمكن، فسوف يُفيدني أن أسمع مرة أخرى تعاقب الأحداث. إنها قضية قد تثبت شيئاً أو لا تثبت يا واطسون، ولكن أياً كان الحال فهي -على الأقل- تُظهِر الخصائص الموضوعية غير العادية التي نقدّرها أنا وأنت. والآن يا سيد بايكروفت لن أقاطعك ثانية.

نظر رفيقنا الشاب إليّ وفي عينيه بريق وقال: أسوأ ما في القصة أنني أُظهر نفسي كشخص أحمق مرتبك. بالطبع يمكن أن تسير الأمور على خير ما يرام، وساعتها سأرى أنه لم يكن بإمكاني فعل أي شيء آخر غير ما فعلت، أما إذا سارت الأمور على عكس ذلك ففقدت كل شيء ولم أحصل على شيء في المقابل فسوف أشعر بمدى ضعفي وحماقتي. أنا لست جيداً في سرد القصص يا دكتور واطسون، ولكن ما حدث كان كالتالي:

كنت أعمل في مؤسسة كوكسن، وقد وقعت هذه المؤسسة في أوائل الربيع ضحيةَ مضاربات خاسرة وسقطت سقطة هائلة. وكنت قد عملت فيها لمدة خمس سنوات، حتى إن كوكسون الكبير أعطاني شهادة توصية جيدة حين انهارت.

وبالطبع فُصل كل الموظفين في المكتب، وكان عددنا سبعة وعشرين.

حاولت الحصول على عمل هنا وهناك ولكن دون جدوى، حيث كان الكثير من الزملاء في نفس وضعي وكان السوق راكداً لوقت طويل. وبما أنني كنت أتقاضى ثلاثة جنيهات في الأسبوع في كوكسن فقد وفرت منها نحو سبعين جنيهاً، ولكن سرعان ما أتيت على كل مدخَراتي وأصبحت بالكاد أجد ثمن الطوابع والظروف التي سألصقها عليها لأردّ على إعلانات العمل. وبلي حذائي من كثرة ارتقاء درجات المكاتب، وبدا أن حصولي على عمل أقرب إلى المستحيل!

وأخيراً وجدت وظيفة شاغرة مع شركة ماوسن وويليامز، وهي شركة كبيرة تعمل في البورصة في شارع لومبارد. أنا أعرف أن الشركات الاقتصادية خارج اختصاصك، ولكني أؤكد لك أنها تكاد تكون أغنى شركة في لندن. كان لا بد من الرد على الإعلان بإرسال الخطابات فقط، فأرسلت شهادة التوصية وطلب الوظيفة، ولكن دون أدنى أمل في الحصول على العمل، وبعدها جاءني الرد ليقول إنني إذا ذهبت في يوم الإثنين فيمكنني استلام واجباتي الجديدة في الحال، هذا إذا كان مظهري مُرضياً.

لا أحد يعرف على وجه التحديد كيف تسير هذه الأمور، فالبعض يقول إن المدير يُدخِل يده في كومة ويأخذ أول طلب يمسك به! حسناً، لقد كان نصيبي في العمل في تلك المرة،

ولا أظن أنني سأشعر أبداً بمثل تلك السعادة مرة ثانية، فالراتب كان يزيد جنيهاً عما كنت أتقاضاه من قبل، والواجبات الوظيفية هي نفسها التي كنت أؤديها في شركة كوكسن.

والآن أصل إلى الجزء المريب في الأمر، فقد كنت أسكن في إحدى الغرف المستأجَرة بالقرب من طريق هامبستد، في العمارة رقم ١٧ بشارع بوتر، وكنت جالساً أشرب الشاي في ذلك المساء بعد أن وعدوني بالعمل عندما جاءت صاحبة المنزل ومعها بطاقة مطبوع عليها اسم آرثر بينَر، ومهنته وكيل مالي. لم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل، ولم أستطع تصور السبب الذي أراد رؤيتي من أجله، ولكني طلبت منها أن تدعوه إلى الدخول بالطبع، وحين دخل وجدته رجلاً متوسط الحجم داكن الشعر والعينين ذا لحية سوداء وأنف يلمع قليلاً، وكانت له طريقة سريعة مميزة ويتحدث بحدّة كمن يعرف أهمية الوقت.

قال: أنت السيد هال بايكروفت كما أعتقد؟

أجبته وأنا أدفع إليه كرسياً للجلوس: أجل يا سيدي.

- هل كنت تعمل مؤخراً في مؤسسة كوكسن؟

- نعم يا سيدي.

- والآن انضممت إلى ماوسن؟

- تماماً.

قال: حسناً، الحقيقة أنني سمعت عن قدراتك المالية

بعض القصص غير العادية. هل تذكر باركر الذي كان مديراً في كوكسن؟ إنه لا يكف عن الحديث عنك.

سُررت بسماع ذلك لأنني كنت دائماً شديد الالتزام في عملي، ولكني لم أحلم بأن يتحدثوا عني في المدينة بتلك الطريقة!

قال: هل تملك ذاكرة جيدة؟

قلت بتواضع: إلى حد كبير.

سأل قائلاً: هل بقيتَ على اتصال بالسوق خلال الفترة التي تركت فيها العمل؟

رسم ولْيَم هايْد (١٨٩٣) William Hyde (1893)

- نعم، فأنا أقرأ كل صباح قائمة أسهم البورصة.

صاح: هذا يُظهِر مواظبة حقيقية، وهذا هو طريق النجاح. إنك لن تمانع إذا اختبرتك، أليس كذلك؟ لنرَ؛ كيف هي إيرشايرز؟

- مئة وستة وربع إلى مئة وخمسة وسبعة أثمان.

- ونيوزيلندا المتحدة؟

- مئة وأربعة.

- وبروكن هيلز البريطانية؟

- من سبعة إلى سبعة وستة.

صاح وهو يرفع يديه: رائع، هذا كما سمعت تماماً! أنت أفضل كثيراً من أن تكون موظفاً في ماوسن يا بني.

أدهشني انفعاله المفاجئ، فقلت: حسناً، لا يقدّرني الآخرون كما يبدو أنك تفعل يا سيد بينر، فقد حاربتُ بشدة للحصول على هذا العمل، وأنا سعيد به.

- هراء يا رجل، يجب أن تكون أكثر طموحاً، فأنت لست في مكانك الحقيقي. سأخبرك الآن كيف سيسير الأمر معي. إن ما أعرضه عليك أقل من قدراتك قليلاً، ولكن إذا قورن بوظيفة ماوسن فهو كالنور بعد الظلام. متى ستذهب إلى مقر شركة ماوسن؟

- يوم الإثنين.

- أراهن أنك لن تذهب إليها على الإطلاق.

- لن أذهب إلى شركة ماوسن؟!

- نعم يا بني، فبحلول ذلك اليوم ستكون مديراً لشركة فرانكو مدلاند للأدوات المعدنية المحدودة التي لها مئة وأربعة وثلاثون فرعاً في مدن وقرى فرنسا، كما أن لها فرعاً في بروكسل وآخر في سان ريمو.

أدهشني ذلك وقلت: لم أسمع عنها قط.

- من المرجَّح أنك لم تسمع عنها، فقد تكتمنا على الأمر لأن الاكتتاب على رأس المال جرى بسرّية، فهذا المشروع ممتاز لدرجة أنهم لم يريدوا للعامة أن يكتتبوا به، وأخي هاري بينر هو المتعهد، وقد التحق بمجلس الإدارة بعد توزيع الحصص كمدير تنفيذي، وعندما عرف أنني في زيارة خاطفة إلى المدينة طلب مني أن أختار شاباً طَموحاً مشهوداً له بالكفاءة، وقد أخبرني بيكر عنك، وهذا ما أحضرني هنا الليلة. بداية نستطيع أن نعرض عليك مبلغاً حقيراً قدره خمسمئة جنيه فقط.

صرخت قائلاً: خمسمئة في العام؟!

- في البداية فقط، ولكنك ستحصل على عمولة مبيعات تقدَّر بواحد في المئة من مشتريات عملائك، وأعدك بأن تلك العمولة قد تفوق الراتب نفسه.

- ولكني لا أعرف شيئاً عن الأدوات المعدنية.

- هراء يا بني، فأنت خبير بالأرقام.

أخذ رأسي يطنّ واستطعت بصعوبة البقاء جالساً في مقعدي، ولكن فجأة بدأ الشك يساورني فقلت: يجب أن أكون صريحاً معك، صحيح أن ماوسن سيعطيني مئتين فقط، ولكنه آمن، وأنا حقاً لا أعرف عن شركتك إلا القليل.

صاح من فوره من السرور وقال: آه، ذكي، أنت ذكي... أنت الرجل الذي يصلح لنا! لا أستطيع مناقشتك، وأنت أيضاً على حق. ها هي ورقة بمئة جنيه، وإذا اعتقدت بأننا يمكن أن نعمل معاً فضعها في جيبك كدفعة مقدمة من راتبك.

- هذا الأمر غاية في الكرم! متى أستطيع أن أتسلم عملي؟

- تعالَ إلى بيرمنغهام غداً في الواحدة. أنا أحمل معي ورقة في جيبي ستأخذها إلى أخي، ستجده في المبنى رقم ١٢٦ بشارع كوربُريشن حيث تقع المكاتب المؤقتة للشركة، وبالطبع يجب أن يؤكد توظيفك، ولكن فيما بيننا سيكون الأمر على ما يرام.

قلت: لا أعرف حقاً كيف أعبر لك عن امتناني يا سيد بينر!

- لا داعي للشكر يا بني، فأنت لم تحصل إلا على ما تستحق، وإن كانت أمامنا بعض الشكليات التي يجب عليّ أن أرتبها معك. توجد هنا ورقة بجانبك أرجو أن تكتب فيها

"لديّ الرغبة التامة في العمل مديراً إدارياً لشركة فرانكو مدلاند للأدوات المعدنية المتحدة براتب خمسمئة جنيه كحد أدنى".

عندما نفّذت ما طلبه مني وضع الورقة في جيبه وقال: أمر آخر؛ ماذا تنوى أن تفعل مع شركة ماوسن؟

كنت قد نسيت كل شيء عنها في غمرة فرحتي بالعمل الجديد فقلت: سأكتب إليهم وأستقيل.

- هذا هو الأمر الذي أرجو أن لا تفعله أبداً. لقد حدث بيني وبين مدير ماوسن شجار في التنافس عليك، فقد ذهبت لأسأله عنك فكان مُهيناً جداً واتهمني بمحاولة انتزاعك من خدمة الشركة، وعلى إثر بعض الجدال فقدت أعصابي وقلت له: إذا أردت رجالاً مناسبين فيجب أن تدفع لهم جيداً. فقال: إن الرجل سيفضّل راتبنا الصغير على راتبكم الكبير. قلت له: أراهنك بخمسة جنيهات على أنه حين يسمع عرضي لن تسمع عنه أبداً بعد ذلك. فقال: موافق، لقد انتشلناه من الحضيض ولن يتركنا بهذه السهولة... كانت تلك كلماته بالضبط.

صحت قائلاً: ذلك الوقح النذل! أنا لم أرَه في حياتي، فلماذا يجب عليّ أن أراعيه بأي طريقة؟ بالتأكيد لن أكتب إليه إذا كنت تفضل ذلك.

فقال وهو يقوم عن مقعده: سأعتبر ذلك وعداً. حسناً، أنا سعيد لأنني حصلت على رجل بارع جداً لأخي. ها هو مقدم الراتب مئة جنيه، والخطاب. فلتكتب العنوان «١٢٦ ب

شارع كوربُريشن». تذكر أن موعدك غداً في الواحدة. تصبح على خير، وأرجو أن تحصل على كل الحظ الذي تستحقه.

كان هذا تقريباً كل ما دار بيننا على قدر ما أتذكر، ولك أن تتخيل -يا دكتور واطسون- سعادتي بهذا الحظ غير العادي لدرجة أنني جلست حتى منتصف الليل أهنّئ نفسي بهذا الأمر.

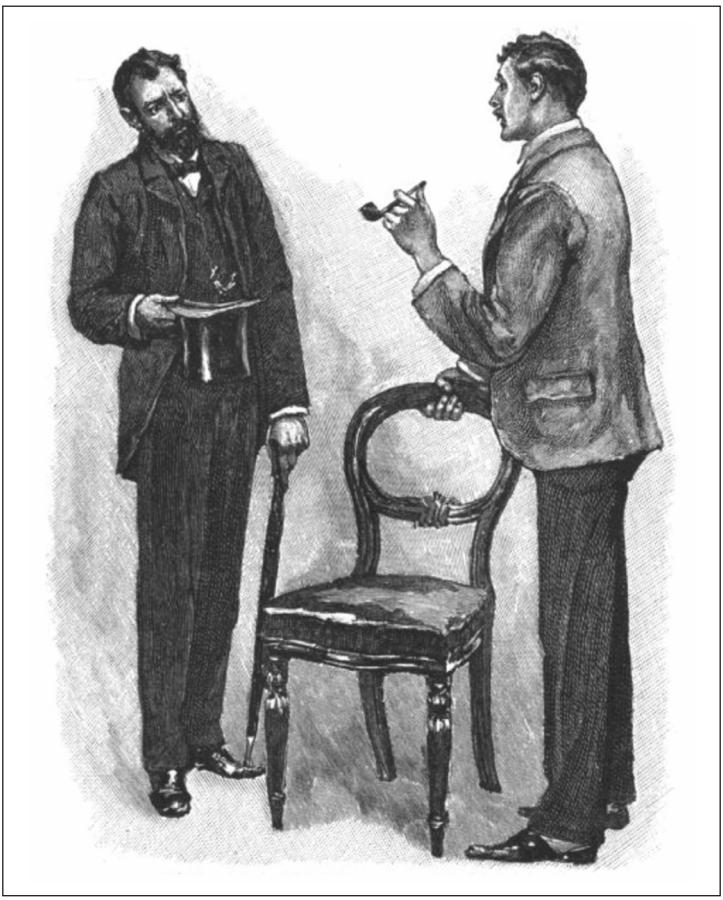

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

وفي اليوم التالي انطلقت إلى بيرمنغهام في قطار يصل قبل موعدي بكثير، وأخذت أشيائي لأضعها في فندق في شارع نيوستريت، ثم ذهبت إلى العنوان الذي أخذته من الرجل. كان وصولي قبل الموعد بربع ساعة، ولكني فكرت بأن ذلك لن تكون له أهمية كبيرة. كان مدخل المبنى رقم «١٢٦ ب» ممراً بين متجرين كبيرَين يؤدي إلى درجات حجرية ملتفّة تقود إلى الكثير من الشقق التي تؤجَّر كمكاتب للشركات أو لرجال الأعمال، وكانت أسماء شاغلي الشقق مكتوبة في الأسفل على الجدار، ولم يكن اسم شركة فرانكو مدلاند للأدوات المعدنية المحدودة موجوداً! وقفت لعدة دقائق وأنا أشعر بقلبي وقد سقط من القلق بين قدمَيّ، ورحت أتساءل إذا كان الأمر كله مجرد خدعة كبيرة، وفي تلك اللحظة جاء رجل ونادى اسمي. كان يشبه الشاب الذي رأيته في الليلة السابقة، البنية نفسها والصوت كذلك، ولكنه كان حليقاً وأقل شعراً.

سألني: هل أنت السيد هال بايكروفت؟

قلت: نعم.

- آه، لقد كنت أتوقع مجيئك، ولكنك بكّرت عن موعدك بقليل.

- كنت أبحث عن مكاتب الشركة عندما ظهرت أنت.

- لم نعلق اسمنا بعد لأننا لم نحصل على هذه المكاتب المؤقتة إلا في الأسبوع الماضي. فلتصعد معي لنناقش الأمر.

تبعته حتى رأس درَج عال جداً، وهناك قادني إلى غرفتين خاليتين صغيرتين مليئتين بالتراب ليس على أرضهما سجاد ولا على جدرانهما ستائر! كنت قد تخيلت مكاتب كبيرة وطاولات

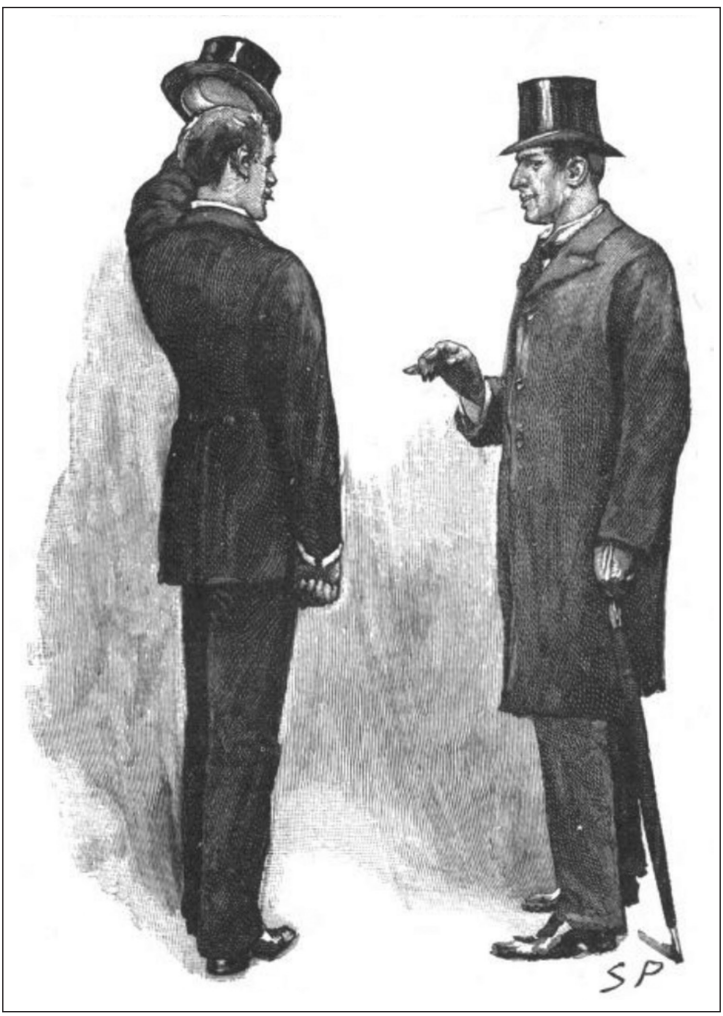

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

براقة وصفوفاً من الموظفين كما تعودت من قبل، وأستطيع القول إنني أخذت أحدق إلى الكرسيين والطاولة، وهي مع الرف وسلة المهملات هي كل الأثاث الموجود في الغرفة!

قال الشخص الذي تعرفت عليه حديثاً حين رأى الوجوم البادي على وجهي: لا تجعل همّتك تفتر يا سيد بايكروفت، فروما لم تُبْنَ في يوم واحد. وبالرغم من الأموال الوفيرة لدعمنا فإننا لم ننفق بعدُ الكثير على المكاتب. تفضل بالجلوس ودعني أقرأ خطابك.

قدمته له فقرأه بعناية شديدة ثم قال: يبدو أنك تركت انطباعاً عظيماً في أخي آرثر، وأنا أعرف أنه حكَم قاسٍ. أتعرف؟ نحن مختلفان في الرأي دائماً، ولكني سأتبع نصيحته هذه المرة، فأرجو منك اعتبار نفسك مرتبطاً بنا.

سألت: وما واجباتي؟

- ستدير في نهاية الأمر مستودعاً في باريس، وهو الذي سيصب شلالاً من الفخار الإنكليزي إلى مئة وأربعة وثلاثين وكيلاً في فرنسا. سننهي الصفقة خلال أسبوع، وفي أثناء ذلك ستبقى في بيرمنغهام وتجعل من نفسك مفيداً.

- كيف؟

جواباً على سؤالي أخذ من الدُّرج كتاباً أحمر كبيراً وقال: هذا دليل باريس وفيه المهنة بجانب الاسم. أريدك أن تأخذه إلى المنزل وتضع علامة على كل بائعي الأدوات المنزلية

وعناوينهم، فسوف يكون من المفيد جداً أن أحصل على هذه البيانات.

قلت مقترحاً: لا بد من وجود قوائم رسمية.

- لا يُعتمَد عليها، فنظام هذه القوائم مختلف عنا. اعمل عليها بجِدّ لأحصل على القوائم بحلول ظهر الإثنين. إلى اللقاء يا سيد بايكروفت، وإذا داومت على إظهار الحماسة والذكاء فسوف تجد أن الشركة مكان جيد للعمل.

عدت إلى الفندق وأنا أحمل كتاباً كبيراً تحت ذراعي ومشاعر متناقضة في قلبي، فمن ناحية كنت بالتأكيد مرتبطاً معهم وفي جيبي مئة جنيه من راتبي، ومن ناحية أخرى كان منظر المكاتب وغياب الاسم عن الجدار وغير ذلك من المسائل التي تفاجئ رجل الأعمال، كانت كلها قد تركت في نفسي انطباعاً سيّئاً عن وضع الشركة.

قلت لنفسي: ليحدث ما يحدث، فقد حصلت على المال. فبدأت عملي بهمّة وأمضيت طوال يوم الأحد في عمل دَؤوب. ورغم جهدي كله فقد حلّ الموعد المضروب يوم الإثنين ولم أصل إلا إلى حرف الدال فقط، فذهبت إلى رب عملي لأجده في نفس الغرفة المجردة من الأثاث، وطلب مني أن أستمر في العمل حتى يوم الأربعاء ثم أعود مرة أخرى. وبحلول الأربعاء لم أكن قد انتهيت بعد، فمضيت في العمل حتى الجمعة، أي يوم أمس، ثم أخذتها إلى السيد هاري بينر فقال: شكراً جزيلاً، أخشى أنني قد أسأت تقدير صعوبة

المهمة. ستكون هذه القائمة عظيمة الفائدة بالنسبة إلينا.

قلت: لقد استغرقت بعض الوقت.

قال: والآن أريدك أن تُعدّ قوائم لمتاجر الأثاث لأنها كلها تبيع الفخار.

- حسناً.

- ويمكنك الحضور غداً مساء في الساعة السابعة لتطلعني على حجم إنجازك. ولا تُجهِد نفسك بالعمل، فقضاء ساعتين في التسلية مساء اليوم لن يؤذيك بعد عملك الطويل.

قال ذلك وضحك هو يتكلم، فلاحظت بانفعال شديد أن سنّه الثانية إلى اليسار محشوة بالذهب بطريقة سيئة.

فرك هولمز يديه في سرور، أما أنا فقد حدّقت إلى عميلنا بدهشة، فقال: يمكنك أن تبدي دهشتك يا دكتور واطسون، ولكن هذا هو ما حصل: حينما كنت أتكلم مع الرجل الآخر في لندن وعندما ضحك لأنني لن أذهب إلى شركة ماوسن تصادف أن لاحظت أن سنّه المشابهة محشوة بالطريقة ذاتها، وخطف نظري لمعان الذهب في الحالتين. وكما ترى، فحين أفكر في ذلك -بالإضافة إلى أن الصوت والبنية متشابهان- لا يخالجني شك في أنه كان الشخص نفسه، أما عن الأشياء التي بدت مختلفة فيمكن تغييرها بحلاقة الذقن وبشعر مستعار. وبالطبع فقد تتوقع أن الأخوين متشابهان، ولكن ليس لدرجة أن تكون عندهما السنّ نفسها محشوة بالطريقة ذاتها!

حسناً، أعود إلى قصتي. بعدما ودعني وجدت نفسي في الشارع لا أعرف رأسي من قدمَيّ، وقد عدت إلى الفندق وحاولت التفكير في الأمر، فلماذا أرسلني من لندن إلى بيرمنغهام؟ ولماذا وصل قبلي؟ ولماذا كتب بنفسه خطاباً لنفسه؟ كان هذا كله أكثرَ من قدرتي على الاستيعاب فلم أفهم منه شيئاً. وفجأة خطر لي أن ما يصعب عليّ فهمه قد يكون واضحاً للسيد شيرلوك هولمز، ولم أضيع وقتاً فركبت قطار الليل لأراه في الصباح وأصطحبكما معي إلى بيرمنغهام.

ساد الصمت بعد أن أنهى موظف سمسار البورصة سرد قصته المدهشة، وبعدها رفع شيرلوك هولمز عينيه إلي واضطجع إلى الخلف على الوسائد بوجه تكسوه السعادة، ثم قال: الأمر رائع، أليس كذلك يا واطسون؟ في هذه القصة بعض النقاط التي تسرني، وأعتقد أنك تتفق معي أن مقابلة مع السيد آرثر هاري بينر في المكاتب المؤقتة لشركة فرانكو مدلاند ستكون تجربة مثيرة للاهتمام لكلينا.

سألته: ولكن كيف ستفعل ذلك؟

قال هال بايكروفت بسرور: هذا سهل جداً، فأنتما من أصدقائي وترغبان في العمل، فماذا يمكن أن يكون أكثر طبيعية من اصطحابكما لمقابلة المدير التنفيذي؟

قال هولمز: هذا صحيح بالطبع، فأنا أرغب في مقابلة هذا السيد ومعرفة ما إذا كنت أستطيع استخلاص أي شيء من لعبته الصغيرة، فما الصفات التي تملكها يا صديقي لتجعل

خدماتك مميزة بهذا القدر؟ وهل من الممكن أن...؟

سكت هولمز فجأة وراح ينظر إلى الفراغ خارج النافذة، ولم نستطع حمله على النطق بكلمة ثانية حتى وصلنا إلى شارع نيوستريت.

* * *

في الساعة السابعة تماماً من ذلك المساء كنا نمشي ثلاثتنا في شارع كوربُريشن متجهين إلى مكتب الشركة. قال عميلنا: لا جدوى من الوصول قبل الموعد، فهو يأتي فقط ليقابلني على ما يبدو، فالمكان يبقى مهجوراً حتى الساعة التي يحددها لي.

علق هولمز قائلاً: هذا أمر يثير الشك.

هتف الرجل: يا إلهي! لقد أخبرتك، وها هو يمشي أمامنا.

أشار إلى رجل أنيق ضئيل الحجم أسمر اللون يمشي بسرعة على الجانب الآخر من الطريق، وبينما نحن نراقبه نادى صبياً كان يصيح معلناً عن الطبعة الأخيرة لجريدة المساء ويَجري قافزاً بين عربات الأجرة، فاشترى منه جريدة وأمسكها بيده ثم تلاشى داخل المدخل، فقال هال بايكروفت: ها هو يذهب، وذلك هو مكتب الشركة الذي دخل إليه. فلتأتيا معي وسأرتب الأمر بكل سهولة.

تبعناه وصعدنا خمسة طوابق حتى وجدنا أنفسنا واقفين

أمام باب نصف مفتوح. قرعه عميلنا فسمعنا صوتاً من الداخل يطلب منا الدخول، فدخلنا إلى غرفة عارية غير مفروشة كما وصفها هال بايكروفت، وقد جلس الرجل الذي رأيناه في الشارع إلى الطاولة الوحيدة وجريدة المساء مبسوطة أمامه.

حين نظر إلينا بدا لي أنني لم أرَ من قبلُ وجهاً يحمل

رسم ولْيَم هايْد (١٨٩٣) William Hyde (1893)

كل هذا القدر من الحزن، ومن شيء آخر أكبر من الحزن، من الرعب النادر الوجود! لمع حاجباه من العرق، وكان وجهه باهتاً شديد البياض وعيناه هائجتين شاردتين، ونظر إلى الموظف وكأنه لم يتعرف عليه، وعرفت من الدهشة المرتسمة على وجه مرشدنا أن هذا ليس المظهر المعتاد لرئيسه بأي حال.

علق قائلاً: تبدو مريضاً يا سيد بينر؟

أجاب الآخر وهو يبذل مجهوداً ليتمالك نفسه ويلعق شفتيه الجافتين قبل أن يتكلم: أجل، لست بصحة جيدة. مَن هذان السيدان اللذان أحضرتهما معك؟

قال بايكروفت بطلاقة: هذا هو السيد هاريس وهذا هو

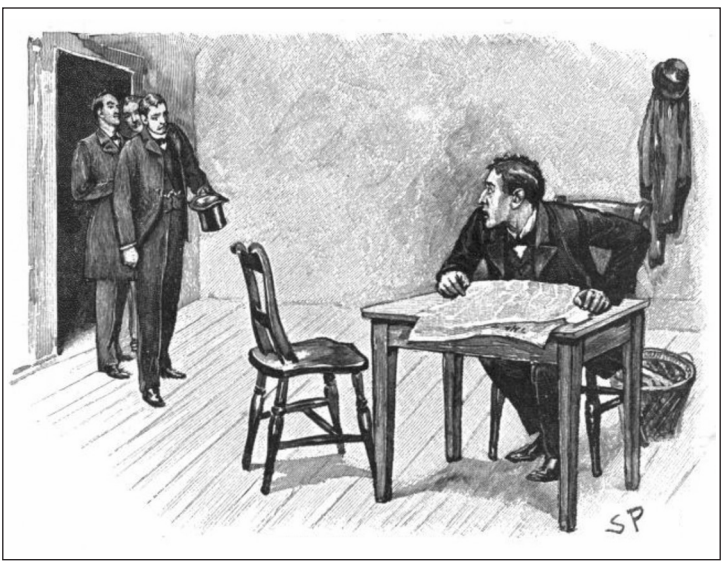

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

السيد برايس، وهما صديقان لي ولهما خبرة جيدة، ولكنهما لا يعملان منذ فترة، وهما يأملان أن تجد لهما مكاناً شاغراً ليعملا في الشركة.

هتف السيد بينر بابتسامة مروعة: ممكن جداً، ممكن جداً؛ لا شك أننا نستطيع العثور على عمل يناسبكما. ما هو تخصصك يا سيد هاريس؟

قال هولمز: أنا محاسب.

- آه، نعم، سنحتاج إلى هذا التخصص. وأنت يا سيد برايس؟

قلت: موظف.

- عندي أمل كبير في أن تجد الشركة لكما مكاناً، وسأُعلِمكما بالأمر حين نصل إلى نتيجة. والآن انصرفوا واتركوني وحيداً بالله عليكم.

اندفعت تلك الكلمات من فمه كما لو أن الضغط الذي كان يمارسه على نفسه قد انفجر بقوة فجأة، فنظرت أنا وهولمز أحدنا إلى الآخر، فيما خطا هال بايكروفت خطوة باتجاه الطاولة وقال: هل نسيت يا سيد بينر أنني هنا في الموعد لأتلقى توجيهاتك؟

استأنف الآخر الحديث وهو أكثر هدوءاً، قال: بالتأكيد يا سيد بايكروفت، فلتنتظر هنا للحظة، ولا مانع من أن ينتظر صديقاك معك، وسأكون في خدمتكم بعد ثلاث دقائق إذا لم

يضايقكم بعض الانتظار.

ثم نهض بطريقة دمثة وانحنى لنا، ثم عبر أحد الأبواب في نهاية الغرفة وأغلقه خلفه، فهمس هولمز: ماذا الآن؟ هل سيهرب منا؟

أجاب بايكروفت: مستحيل.

- لماذا؟

- لأن هذا الباب يؤدي إلى الغرفة الداخلية.

- أليس لها مخرج؟

- لا.

- هل فيها أثاث؟

- كانت خاوية حتى أمس.

- فماذا يفعل إذن؟! في تصرفاته شيء لا أفهمه، ويبدو عليه أنه قد فقد عقله من الرعب! فما الذي خوّفَه لهذه الدرجة؟

قلت مقترحاً: لعله يشك في أننا مخبران.

وافق بايكروفت: ربما.

هزّ هولمز رأسه وقال: لكنه لم يشحب حين رآنا، بل كان شاحباً بالفعل حين دخلنا الغرفة. هل من الممكن أن...؟

قاطع كلامَه صوتٌ حاد من ناحية الغرفة الداخلية كصوت طرقات على الباب، ومرة ثانية جاء نفس الصوت

بصوت أعلى. نظرنا جميعاً إلى الباب المغلَق مترقبين، وحين نظرت إلى هولمز رأيت وجهه يقسو، ثم مال إلى الأمام في انفعال شديد، وفجأة سمعنا صوت قرقرة منخفضة مع خبط سريع على الباب، فقفز هولمز عبر الغرفة ودفع الباب الذي

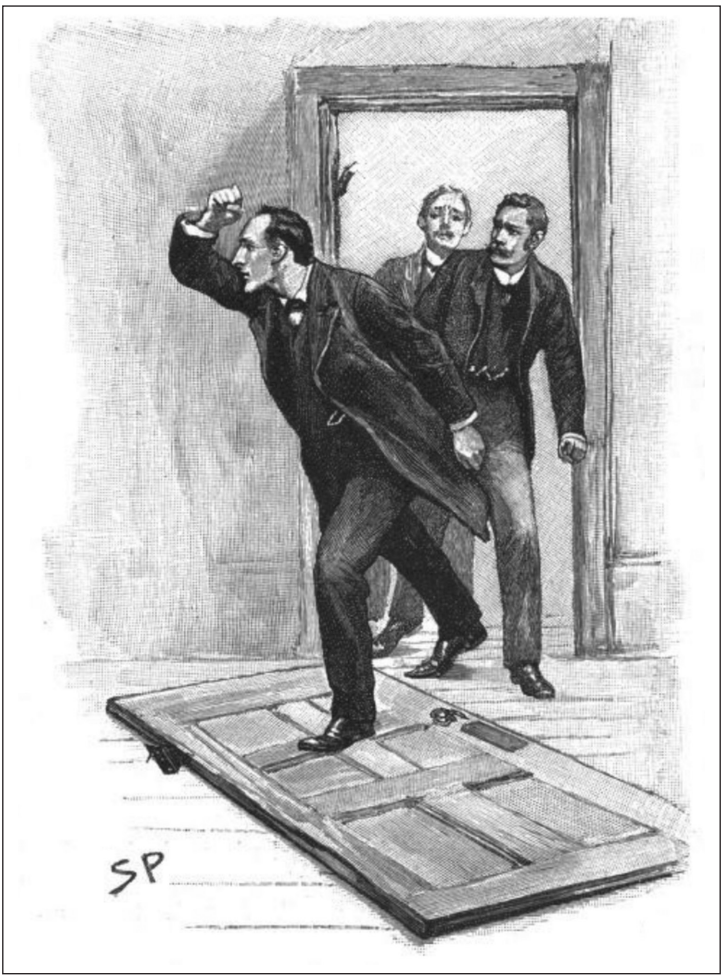

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

كان مغلَقاً من الداخل، فقلّدناه ورمينا بأنفسنا على الباب، فكُسرت إحدى المفصلات ثم الأخرى، وبعدها تحطم الباب.

اندفعنا فوقه فوجدنا أنفسنا في الغرفة الداخلية التي كانت فارغة، ولكنّ حيرتنا لم تَدُم سوى دقيقة فقط، ففي إحدى الزوايا كان باب ثانٍ، قفز هولمز إليه وفتحه، فوجدنا معطفاً على الأرض، ومن علّاقة عالية خلف الباب تدلى جسد المدير التنفيذي لشركة فرانكو مدلاند وحمّالات بنطاله حول رقبته ورأسه يتدلى بزاوية مريعة مع جسده، وكان كعبا قدميه يقرقعان على الباب مُصدرَين الصوت الذي قاطع محادثتنا.

حملته من وسطه فوراً وأنزلته، وفكّ هولمز وبايكروفت أربطة المطاط التي غارت في تجاعيد الجلد الشاحب، ثم حملناه إلى الغرفة الأخرى حيث رقد بوجه لونُه كلون الطين وهو ينفخ شفتيه البنفسجيتين إلى الداخل والخارج مع كل نفَس! كان أشبه بالحطام، على عكس ما كان منذ خمس دقائق مضت.

سأل هولمز: ما رأيك في حالته يا واطسون؟

انحنيت فوقه وفحصته. كان يُصدِر صوتاً ضعيفاً متقطعاً ولكن تنفسه أخذ في التحسن، وكان جفناه يرتعشان ويُظهِران خطاً رفيعاً أبيض من عينيه. قلت: لقد كان على وشك الموت، ولكنه سيعيش الآن. فلتفتح هذه النافذة وناولني قارورة الماء.

فككت ياقته وصببت ماء بارداً فوق وجهه، ثم داومت على رفع ذراعَيه وإنزالهما حتى سحبَ نفَساً طويلاً طبيعياً،

وأخيراً قلت: إنها مسألة وقت الآن.

ثم قمت مبتعداً عنه، في حين وقف هولمز قرب الطاولة واضعاً يديه في جيبَي بنطاله وذقنه على صدره وقال: أعتقد أن علينا أن نستدعي الشرطة الآن، وإن كنت أفضّل لو أعطيتهم قضية كاملة حين يصلون.

صاح بايكروفت وهو يحك رأسه: إنه لغز غامض جداً. لماذا أحضرني كل هذا الطريق إلى هنا ثم...؟

قال هولمز بنفاد صبر: هراء، كل هذا واضح بما فيه الكفاية. إنها فقط تلك الحركة الأخيرة التي كانت مُفاجِئة.

- أنت تفهم الباقي إذن؟

- أعتقد أن الأمر واضح جداً. ما رأيك يا واطسون؟

قلت: يجب أن أعترف بأنني في غاية الحيرة.

- لو درست الأحداث من البداية لوجدت أنها تشير إلى نتيجة واحدة فقط.

- وماذا استخلصت منها؟

- حسناً، الأمر كله يرتكز على نقطتين، الأولى هي جعل بايكروفت يكتب الإقرار الذي دخل بموجبه في خدمات هذه الشركة الوهمية. ألا تريان كيف أن الأمر يوحي بالكثير؟

- أخشى أنني لم أفهم هذه النقطة.

- حسناً، لماذا طُلب منه هذا الطلب الغريب؟ السبب ليس متعلقاً بالعمل، فهذه الترتيبات عادة ما تتم شفوياً ولا يوجَد أي سبب مِهَني يجعل من هذه الحالة استثناء. ألا ترى يا صديقي الشاب؟ لقد كانوا متلهفين جداً للحصول على نموذج بخط يدك، ولم يكن أمامهم سبيل آخر للحصول عليه.

- ولماذا؟!

- تماماً، لماذا؟ الإجابة عن هذا السؤال ستجعلنا نحرز بعض التقدم في حل مشكلتنا الصغيرة. لماذا؟ يمكن أن يكون لذلك سبب واحد مقنع، فقد أراد أحدهم أن يتعلم تقليد خطك، وكان لا بد له من الحصول على نموذج منه أولاً. والآن لننتقل إلى النقطة الثانية، وسنجد أن كل نقطة تلقي بالضوء على الأخرى، وهذه النقطة هي طلب بينر منك عدم الاستقالة من وظيفتك، وهذا سيترك مدير العمل المهمّ في انتظار السيد هال بايكروفت الذي لم يرَه قط والذي كان على وشك الذهاب إلى المكتب صباح يوم الإثنين.

صاح عميلنا: يا إلهي! لقد كنت كالخنفساء العمياء!

- والآن بعد أن فهمت النقطة المتعلقة بخط اليد، فلنفترض أن شخصاً ما جاء منتحلاً شخصيتك وكتب بخط مختلف عن ذلك الذي قدّمتَ به طلب الوظيفة، عندها كانت اللعبة ستنتهي بالطبع، ولكن الشخص المزيف استغل الوقت ليتعلم تقليد خطك، وبذلك أمّن موقفه، وأظن أنه لم يسبق لأحد في ذلك المكتب أن رآك؟

تأوه هال بايكروفت وقال: لا أحد.

- جيد، فبالطبع كان مهماً جداً منعك من إعادة التفكير بالأمر، وأيضاً إبعادك عن الاتصال بأحد يمكن أن يخبرك بأن منتحل شخصيتك يعمل في مكتب ماوسن. لذلك أعطوك دفعة مقدَّمة سخيّة من الراتب وأبعدوك إلى هنا حيث كلّفوك بعمل كاف لمنعك من الذهاب إلى لندن حتى لا تُفسِد لعبتهم الصغيرة، وكل هذا واضح بما فيه الكفاية.

- ولكن لماذا تظاهر هذا الرجل بأنه أخوه؟

- حسناً، هذا أيضاً في منتهى الوضوح، فالذين نفذوا هذه اللعبة اثنان فقط، أحدهما هو الذي انتحل شخصيتك في شركة ماوسن، والثاني هو هذا الرجل الذي قدم نفسه بصفته متعاقداً معك، ثم اكتشف أنه لا يمكن أن يجد لك مديراً دون إدخال شخص ثالث في المؤامرة، وهذا ما لم يرغب به، فغير ملامحه بقدر ما استطاع وهو على ثقة بأنك ستردّ التشابه الذي ستلاحظه بالتأكيد إلى تشابه عائلي، ومن المحتمَل أنك لم تكن لتشك في الأمر لولا مصادفة السن الذهبية.

لوّح بايكروفت بقبضتيه في الهواء وقال: يا إلهي! وماذا يفعل هال بايكروفت الآخر في شركة ماوسن بينما أنا هنا أُخدَع بهذه الطريقة؟ ما الذي يجب علينا فعله يا سيد هولمز؟ أخبرني ماذا أفعل!

- يجب أن نرسل برقية إلى شركة ماوسن.

- إنهم يغلقون في الساعة الثانية عشرة يوم السبت.

- لا يهم، من المؤكد أن لديهم بَواباً أو حارساً.

- آه، نعم، لديهم حارس مقيم لحماية السندات المالية التي يحتفظون بها حسبما سمعت في المدينة.

- حسناً، سنبرق إليه لنعرف إذا كان كل شيء على ما

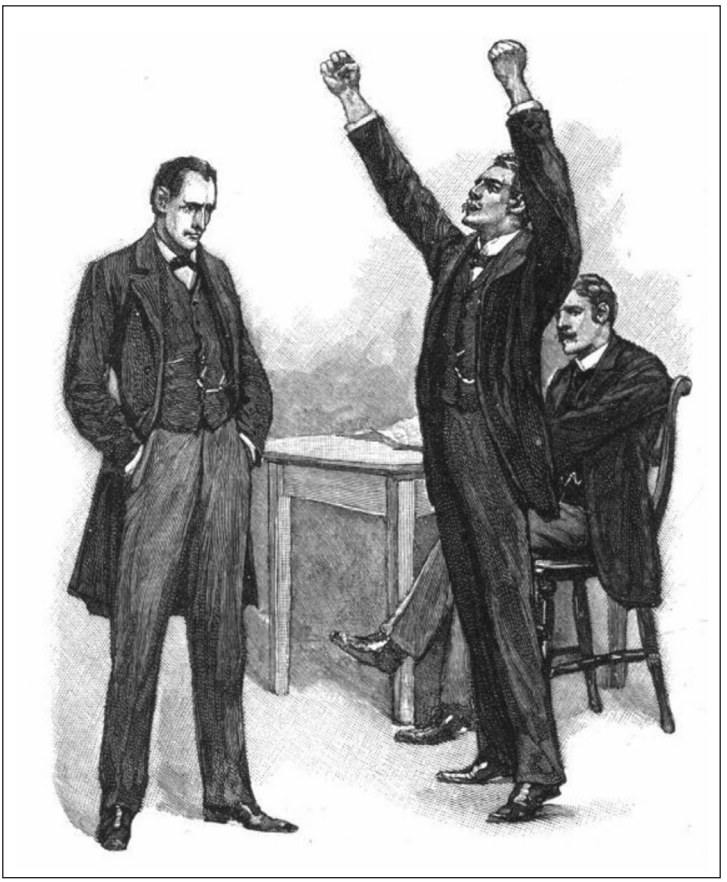

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

يرام وإذا كان في الشركة موظف يعمل منتحلاً اسمك. كل هذا واضح بما فيه الكفاية، ولكنّ الذي ليس بنفس الوضوح هو السبب الذي حمل أحدَ المجرمَين على الخروج من الغرفة فجأة ومحاولة شنق نفسه على مرأى منا!

صاح صوت خلفنا: الصحيفة!

جلس الرجل ولونه شاحب مريع، وإن كان قد بدأ ينتبه لِما حوله ويحكّ بعصبية العلامة الحمراء العريضة التي ما زالت تطوق عنقه. فصرخ هولمز: الصحيفة... بالطبع، يا لي من أحمق! لقد استغرقت في التفكير بزيارتنا لدرجة أن الصحيفة غابت عن بالي. فلنتأكد، لا بد أن السرّ فيها.

ثم بسَطها على الطاولة، وانطلقت صرخة نصر من

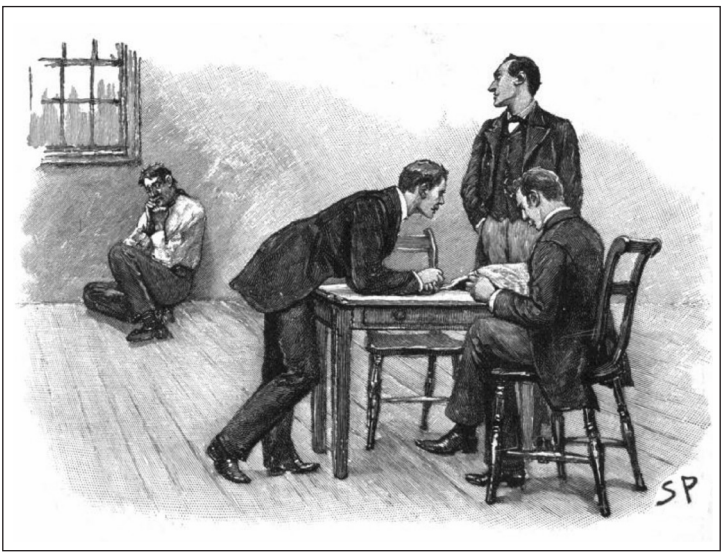

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

بين شفتيه صائحاً: انظر إلى هذا يا واطسون، إنها صحيفة لندن، وهي طبعة مبكرة من جريدة «إيفننْغ ستاندرد». ها هو ما نريد، انظر إلى العنوان: «جريمة في المدينة، جريمة قتل في شركة ماوسن وويليامز، محاولة كبيرة للسرقة، القبض على المجرم». خذ يا واطسون، نحن جميعاً في شوق لسماع الخبر، فاقرأه بصوت عالٍ لو سمحت.

بدا من موقع الخبر في الصحيفة أنه الحدث الأكثر أهمية في المدينة، وكان نصه كما يلي:

وقعت هذا المساء في المدينة محاولة يائسة للسرقة انتهت بمقتل أحد الرجال والقبض على القاتل، وقد كانت شركة ماوسن وويليامز (وهي مؤسسة مالية شهيرة) قيّمة على سندات مالية تزيد قيمتها على مليون جنيه. ولأن المدير أدرك المسؤولية الملقاة على عاتقه بسبب هذا المبلغ الهائل المعرَّض للخطر فقد استخدم خزائن على أحدث نظام ووظف حارساً مسلحاً يرابط في المبنى ليلاً ونهاراً.

وتَبيّن أن الشركة وظفت في الأسبوع الماضي موظفاً جديداً اسمه هال بايكروفت، حيث اتضح أنه ليس سوى اللص والمزوّر الشهير بيدنغتون، الذي أنهى مؤخراً هو وأخوه فترة عقوبة مدتها خمس سنوات من الأشغال الشاقة. وقد نجح -بطريقة لم تتضح بعد- في الحصول على هذه الوظيفة تحت اسم مستعار، فاستطاع نسخ عدد من المفاتيح ومعرفة معلومات

تفصيلية عن مكان الغرفة المنيعة والخزائن.

من عادة موظفي ماوسن أن يغادروا في الساعة الثانية عشرة يوم السبت، ولذلك دُهش العريف توسن (وهو من شرطة المدينة) حين رأى رجلاً ينزل درَج المبنى في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة وهو يحمل حقيبة من القماش. هذا الأمر أثار شكوك العريف فتابع الرجل، ثم تمكن بمساعدة الشرطي بولاك من القبض عليه بعد مقاومة مستميتة.

واتضح على الفور وقوع عملية سرقة جريئة وهائلة، فقد عُثر في الحقيبة على ما يعادل مئة ألف جنيه من سندات السكك الحديدية الأمريكية وعلى كمية كبيرة من أسهم المناجم والشركات الأخرى، وبفحص المبنى عُثر على جثة الحارس التعِس محشورة في كبرى الخزائن، حيث ما كان أحدٌ ليكتشفها حتى صباح الإثنين لولا التصرف الحازم للعريف توسن، وكانت جمجمة الحارس مهشمة من الخلف بسبب ضربة شديدة تعرض لها بقضيب تحريك النار المعدني.

ولا شك أن بيدنغتون استطاع الدخول متظاهراً بأنه نسي شيئاً في المكتب، ثم قتل الحارس ونهب الخزنة الكبيرة، وبعدها هرب بغنيمته. أما أخوه الذي عادة ما يعمل معه فلم يظهر في هذا العمل حسبما يمكن تأكيده في الوقت الحاضر، مع أن رجال الشرطة يُجرون تحريات دقيقة لمعرفة مكانه.

* * *

قال هولمز وهو يلقي نظرة عابرة على الشخص المنهَك المنزوي بجانب النافذة: حسناً، نستطيع توفير بعض المشقة على الشرطة بخصوص هذا الأمر. إن الطبيعة البشرية مزيج غريب يا واطسون، فكما ترى، حتى قاتلٌ شرير كهذا يمكنه أن يثير مثل هذه المشاعر، لدرجة أن يحاول أخوه الانتحار عندما يعرف أن رقبته على المحَكّ. على أية حال ليس لدينا خيار فيما سنفعله؛ أرجو أن تتفضل بالذهاب لاستدعاء الشرطة يا سيد بايكروفت، وسأبقى أنا والدكتور واطسون هنا للحراسة.

* * *

-تَمَّت-

المحتويات

مقدمة الناشر
للطبعة العربية

تعريف بالمؤلف ٥
شيرلوك هولمز وعالَمه ٩
قصص شيرلوك هولمز ١٣
رسّام شيرلوك هولمز ١٧

القصص القصيرة
في هذا الجزء

ذو الغُرّة الفضية ١٩
لغز الطرد البريدي ٦٩
لغز الوَجْه الأصفر ١١١
مغامرة موظف البورصة ١٤٧

«الأجيال» تقدم الأعمال الكاملة
لشيرلوك هولمز في ١٨ جزءاً

ترقيم المجموعة
حسب تسلسل الصّدور الأصلي باللغة الإنكليزية

(١) دراسة في اللون القِرْمِزيّ
(نُشرت سنة ١٨٨٧)

(٢) علامة الأربعة
(نُشرت سنة ١٨٩٠)

(٣) مغامرات شيرلوك هولمز (١٨٩١)
فضيحة في بوهيميا * عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
قضية هُويّة * لغز وادي بوسْكومْب

(٤) مغامرات شيرلوك هولمز (١٨٩١-١٨٩٢)
بُذور البرتقال الخَمْس * ذو الشّفَة المُلتوية
مغامرة الجوهرة الزرقاء * لغز العصابة الرَّقطاء

(٥) مغامرات شيرلوك هولمز (١٨٩٢)
مغامرة إبهام المهندس * مغامرة النّبيل الأعزب
مغامرة تاج الزُّمُرّد * منزل الأشجار النحاسيّة

(٦) مذكرات شيرلوك هولمز (١٨٩٢-١٨٩٣)

ذو الغُرّة الفضية * لغز الطرد البريدي
لغز الوَجه الأصفر * مغامرة موظف البورصة

(٧) مذكرات شيرلوك هولمز (١٨٩٣)

سفينة «غْلوريا سْكوت» * وصية عائلة موسْغريف
لغز بلدة ريغيت * مغامرة الرّجل الأحدَب

(٨) مذكرات شيرلوك هولمز (١٨٩٣)

لغز المريض المقيم * مغامرة المترجم اليوناني
وثائق المعاهدة البحرية * المشكلة الأخيرة

(٩) كلب باسكرفيل (١٩٠١-١٩٠٢)

(١٠) عودة شيرلوك هولمز (١٩٠٣-١٩٠٤)

مغامرة المنزل الفارغ * مغامرة بَنّاء نورْوُد
لُغز «الرجال الراقصون» * مغامرة راكبة الدرّاجة

(١١) عودة شيرلوك هولمز (١٩٠٤)

مغامرة مدرسة التّجهيز * مغامرة بيتر الأَسْوَد
قضيّة تشارلز مِلْفرتون * لغز تماثيل نابليون السّتّة

(١٢) عودة شيرلوك هولمز (١٩٠٤)

مغامرة الطلاب الثلاثة * لغز النظّارة الذهبية
مشكلة اللاعب المفقود * مغامرة قصر آبي غرينْج

(١٣) ذكريات شيرلوك هولمز (١٩٠٤-١٩٠٨)

مغامرة البقعة الثانية * لغز منزل وِسْتيريا لودج
سرقة تصميمات الغوّاصة

(١٤) ذكريات شيرلوك هولمز (١٩١٠-١٩١٣)

لغز «قدم الشيطان» * مغامرة «الدائرة الحمراء»
اختفاء الليدي كارْفاكس * مغامرة المحقّق المريض

(١٥) وادي الخوف (١٩١٤)

(١٦) قضايا شيرلوك هولمز (١٩٢١-١٩٢٤)

مغامرة جوهرة التّاج * لغز جسر ثُور
مغامرة الرجل الزاحف * لغز مَصّاصة الدماء

(١٧) قضايا شيرلوك هولمز (١٩٢٥-١٩٢٦)

رجال غاريدِبْ الثلاثة * مغامرة العميل المبجَّل
منزل الجَمَلونات الثلاثة * مغامرة الجنديّ الشاحب

(١٨) قضايا شيرلوك هولمز (١٩٢٦-١٩٢٧)

مغامرة لِبدة الأسد * مشكلة صانع الألوان المتقاعد
لغز النّزيلة المنقَّبة * لغز قصر شوسكومْب
الظهور الأخير

لمتابعة أخبارنا
والاطّلاع على منشوراتنا

تفضلوا بزيارة موقعنا على الشبكة العالمية

www.al-ajyal.com